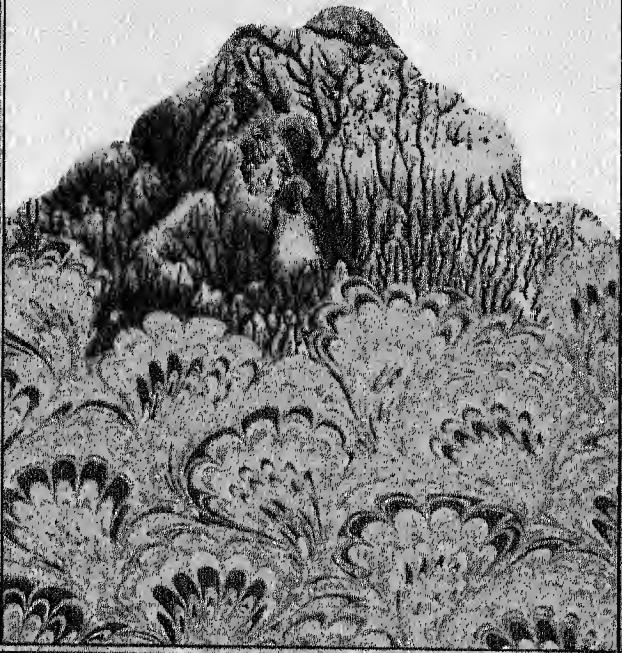


الإسلام
ومكارم الأخلاق
بأقلام عشرة من علماء الإسلام



دار الشوaf للنشر

دار الكاتب العربي

100



General Organization of the Alexandria
Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

بِسْمِ اللَّهِ

وَمَكَرُمِ الْأَخْلَاقِ

بِأَقْدَامِ عَشْرَةِ مِائَةِ سَلَامٍ

297-5
10/1/19



المهنية العامة لمكتبة الاسكندرية

رقم التصنيف : 297.5

١.٣.١

رقم التسجيل : 5279

23551

23551

الله

ومكارم الأخلاق

بأقلام عشرة من علماء الأئمة

دار الكتب والوثائق القومية

الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

جميع الحقوق محفوظة
دار الكاتب العربي

محمد أبو زهرة

الأخلاق .. الأخلاق



قال الله تعالى : « واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (١) *

١ - هذا نص صريح قاطع في ان هلاك الامم وضعف شأنها، وانحلال قواها ، انما يكون بالشهوات المتحكمة والاهواء المتردية ، وبسيطرة ذلك على الذين يوجهونها ، سواء أكانوا مديرين سيطرت عليهم اهواؤهم ، ام كانوا قادة الافكار المسيطرين على الرأي العام ، الذين يشون فيه الفساد ، ام كانوا ذوي تقدير دنيوي وجاه لا يستمد من الفضيلة او الدين او الخلق الكريم ، بل يستمد من النفوذ الآثم والتضليل المبتوث *

ام كانوا من المقلدين لكل مردول ، ومهما تكن قيادة الفساد وتنوعها ، فان هؤلاء هم الذين يقودون الجماعات الى الهاوية ، ولا يؤدي الى خنقها سلاح مهما كانت قوته ، ولا ادوات حرب مهما يكن فنكها ، لان كل شيء يسير بالهوى ، لا يجدي ، وكل قوم سيرتهم شهواتهم ينحدرون ولا يرتفعون *

وفي هذه الآية الكريمة ما يشير الى ان الترف هو الذي يؤدي الى الفسق ، وان الفسق هو الذي يؤدي الى الدمار *

فعلى الذين يعملون لرفع الامة ، ان يتجهوا الى الدعامة التي تقسوم عليها ، وهي قوة النفس وسيطرة الارادة المؤمنة على الاهواء الجامحة *
وانه كلما كان الترف المردي كانت القوى المنحلة ، وكلما كانت

(١) سورة الاسراء الآية ١٦ *

الارادة القوية ، والعزيمة الصادقة والاخلاص المنير كان النصر المبين
والتأييد من رب العالمين •

٢ - ولا غرابة في ان الترف هو الذي يجعل الاهواء توجه وتحكم
وتدفع الى الانحلال ، فتلك حقيقة ثابتة مقررة في علم الاجتماع •

ولعل ابن خلدون المسلم اول من نبه لذلك في مقدمته المشهورة ،
فقد قرر فيما قرر ان الاسم التي لم يصبها الترف ، ولم تحل عزيمتها
كثرة الشهوات ، هي الامة القوية •

ولذلك يرى القوة الشخصية في البادية اكثر منها في الحضر ، وكان
في الماضي للقوة البدنية مقامها في الحروب ، وسرعان ما ينتشر البدو
اذا تجمعوا غزاة للحواضر التي تجاورهم •

اما الحضريون فلا يقفون امامهم ، بل تنهار القوى الحضرية ، امام
بأس البادية ، حتى اذا استقروا امدا ، استولى عليهم الترف ، وارتخت
عزائمهم الشهوات ، فصاروا غرضا لمن وراءهم من البادية • وهكذا
يستمر الحال في تلك الدورة الدائمة •

وقد يقول قائل من ذوي الافكار التي لا تفوص وراء تعرف الحقائق:

وما لهذا القول وقد اصبح في زماننا هذا ، ان النصر في الحروب
ليس بقوة الابدان ، اذ قد تغير السلاح فصار النصر بالعلم ، وبقوة
الدربة على ما اخترعه ابن الارض من ادوات فتاكة ، وذلك في الحضر لا
فسي البادية •

وتقول في الجواب على ذلك الكلام ، اننا لا نأخذ من كلام ابن
خلدون الا شيئا واحدا •

وهو اثر الترف في حل قوى العزيمة ، ثم الاسترخاء الذي الملاذ

والشهوات ، والتطبيق الذي ذكره عن اهل البادية والحضر تأخذه كمثل
موضح او مقرب لآثر الترف في حل العزائم .

وان ذلك لحقيقة مقررة ثابتة تطبق في الجماعات كلها ، سواء أكانت
هابطة في مقامها الفكري ام عالية . وسواء كان السلاح فيها سيفاً ام
رمحاً . أم كان طائراً تخترق اجواء الفضاء ، ومدافع تدك الارض
دكاً ، وجاريات تمخر عباب البحر .

فان الترف المفسد له اثره في كل الاحوال ، والاعتصام بالدين ،
وبالاخلاق له ثمرته في كل الاحوال .

فاذا سيطر الترف كان الفسق عن امر الله ، وكانت الارادة المنحلة
والعزيمة الخائرة ، والجماعات الحائرة والقلوب المتنافرة ، والطبقات
المتنايذة .

ومهما تكن قوة السلاح ، وكثرة العدد ، فان القوة المعنوية هي
القوة الدافعة ، لان الاسلحة لا بد ان تكون صادرة عن جماعة مؤتلفة ،
وعن ارادات حازمة .

ولا يمكن ان تتحرك الاسلحة من تلقاء نفسها ، وتعمل من غير
عقول مدركة وقلوب مجتمعة ، وجماعات متآخية ، لتطمئن النفوس ،
وتستقر الاحوال . اذ يعتقد حامل السلاح ، انه يعمل لجماعة تقدر عمله
وتجني ثمراته وتستغلها في نفع عام ، لا في الشهوات الجامحة ،
والترف المفسد واللهو الباطل .

فالانسان لا يقدم نفسه فداء لجماعته الا من يستوثق بانها ، تنفع
بفدائه ، وتعرف ان فناءه بقاء لها .

ولا يمكن ان يتقدم للفداء من يظن او يعتقد ان الذين يستمتعون

بشرة فدائهم ، يلهون ويلعبون ، ويعيشون في الارض من غير و
دين او خلق او رأي عام لائم مقوم مهذب .

٣ - وانه مهما يكن من الكلام في اثر الترف الذي اشار اليه
القرآني ، من انه السبب في انحلال الامة ودمارها وذهاب قوتها
بقي لها وجود .

فمن المؤكد انه مناف لسيادة الاخلاق في الامة ، وانه اذا
اخلاقها عزفت عن الترف ، ولم تنل من الملاذ الا ما تقوى به
وما يكون سائرا تحت ظل الاخلاق الدينية والاجتماعية ، وكل
مفيد للجماعة ، بحيث يكون الرجل مصدر خير لامته عامة ولجده
خاصة ، وللانسانية في شتى الشعوب والاقاليم .

ولكن كيف تكون الاخلاق كابحة للاهواء مانعة من الترف

لا بد ان نخوض بكلمة موجزة في مقياس الخير والشر في
وفي فلسفة الاخلاق .

وان من الامور التي يثيرها علماء الفلسفة الخلقية الاجتماعية ،
المقياس الخلقى ، وما الضابط لما هو خلقى ، وما ليس بخلقى .
فهم يقررون حقيقة ثابتة ، وهو ان الخير حكمه واحد عام ،
خير في امة ، هو خير فيما عداها . وما هو شر في جماعة هو شر
الجماعة الاخرى .

فحكم الخير والفضيلة عام لا يخص اقليما ، وهو في القدر
كذلك . فأحكامه الخلقية والشرعية عامة لا تخص قبيلة دون قبيل .

فالصدق والعدل والحياء ، هي فضائل في كل زمان ومكان
والنفاق والكذب والخيانة ، والنميمة والسعاية بالفساد في الار

والقتل والاعتداء بكل ضروبه - حكم القرآن انها شر في كل بقاع الارض *

وكذلك فالعدالة خير واجب يلزم به المسلم لا فرق بين عدو وولي ،
وذلك يقول سبحانه :

« يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم
شئان قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى » (١) *

٤ - وان علماء الاخلاق يختلفون بعد ذلك في المقياس الضابط
للاخلاق * فمنهم من يقول انه الملذات * فكل ما هو لذيق طيب خير * وكل
ما هو ليس بطيب شر *

ومنهم من يقول ان كل ما فيه سمو وعلو خير ، وما ليس كذلك
فهو شر * وهذا مقياس ليس بمضبوط ، الا من قبل النفس والاحساس
الروحي * وهذا يشبه ما عند الصوفية *

ومنهم من يقول القياس الضمير والوجدان ، ومنهم من يقول هو
الواجب وهكذا ...

وهناك مذهب مقرر وهو ان المقياس هو المنفعة لأكبر عدد وبأكبر
مقدار * فكل عمل فيه نفع لأكبر عدد وبأكبر قدر خير * وكل عمل فيه
مضرة لأكبر عدد شر *

ولعل هذا المذهب هو اقرب الآراء لاقوال فقهاء المسلمين * فالغزالي
وابن عبدالسلام قررا ان الاحكام الشرعية باستقراءها ، يتبين انها
جاءت لمصلحة الانسان *

فما يكثر نفعه على ضرره يكون مطلوبا ، وما يكبر ضرره على
نفعه يكون ممنوعا هذا وتتفاوت المطلوبات ، في الطلب بقدر الضرر

(١) صورة المائة الآية - ٨ .

من مكروه الى معزم .

٤ - ويلاحظ في تقدير المنافع ادومها وان كان قليلا ، فانه يدخل في تقدير الكثرة والقلّة مقدار الدوام . فما ينقض سريعا ، وان كان كثيرا خير منه ، ما يكون أدوم ، وان كان اقل من السريع . ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم :

« أحب الاعمال ادومها وان قلّ »

ويقول عليه الصلاة والسلام :

« ان الله يحب الديمة من الاعمال » .

وان المنفعة العاجلة يقايس بينها وبين المنفعة الآجلة ، وقد يترك النفع العاجل ، ويقصد النفع الآجل ، ويكون الخير فيه .

فمن يتحمل المشاق لنيل غرض مقصود ، لا ينال الا المشاق ، انما يأخذ ببدا المنفعة الآجلة . فكل مشقة تحتل لغاية تكون في ذاتها نافعة له او لغيره ، يكون من قبيل الاخذ ببدا المنفعة الكاملة ، الآجلة التي تقرها الشريعة ، ويقرها المذهب الخلفي السليم .

ومن اجل ذلك ، كانت مشقات الجهاد يفرضها حكم القرآن لسبيل غاية سامية ، وهي حماية الدولة ، وتوفير الامن والاطمئنان للامة ، وتحقيق منافعها .

وان احتمال مشاق الدنيا ، لما يرجى من نعيم الله في الآخرة . ولقد روي ان المسيح عليه السلام قال :

« طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعود غائب لم يره » .

٥ - مضينا على شاطئ البحوث الخلقية ، وما تنتهي اليه من ان المنافع لأكبر عدد مطلوب ، وهو يتقارب مما تقرره الشريعة في جملة ما

استنبطه علماءؤها ، مقياس صحيح للاخلاق ، والاحكام الشرعية المنزلة .
وانا سقنا هذا الكلام لامرين جوهريين :

اولهما - ان اللذات العاجلة التي يدفع اليها الترف المدمر الاخلاق ،
يتنافى مع الدين ومع الاخلاق ، التي يقررها علماء الفلسفة الخلقية . وانه
لا يمكن ان تقوم امة ، والترف ينخر في عظامها ، ويدمرها كما قرر
القرآن في محكم آياته .

ثانيهما - ان النفع العام مطلوب بحكم الشرع ، وان كل ما يتنافى
مع النفع العام لاكبر عدد يقوض دعائم الاخلاق .

وان الذين يقدمون نفوسهم واموالهم ، واقدامهم ، والسنتهم ،
يجب ان يشعروا بانهم يفعلون ذلك لمنفعة الكافة . وانهم يجب عليهم ان
يقوموا بذلك لاجل الامة ، لا لاجل شخص معين .

فهم خدام لهذا الشخص ، وان قدموه للامة ، وهم خدام الحق
والواجب ، وبذلك تسمو نفوسهم ، وتعلو مكانتهم عند الله وعند الناس ،
وان قدموه لاجل شخص فهم الاذلون ، ولهم من خلق العبيد قرب ،
والعزير من يخدم الحق لذات الحق ، لانه عبد لله تعالى ، وليس عبدا لاحد
من خلقه . فخدمة الاشخاص ذلة ، وطاعة الله عز ، فلنعتبر وتندبر .

٦ - وننتهي من هذا الى امور ثلاثة نقررها ، ونطبقها على ما
نحن فيه .

اول هذه الامور ان الترف فساد وضد مكارم الاخلاق ، لانه اثره
وانانية . والفضيلة نفع عام وايتار . وان الترف اذا ساد في امة مزع
اخلاقها ، وتقطع آحادها ، وتنابدوا وتفرقوا . لان كلا لا ينظر الا الى
نفسه وما يحدها ولا يخرج عن دائرتها .

وفي الحق انها لا تكون امة مجتمعة مؤتلفة ، بل تكون اقطاعا متدبرة متنايزة . وان الترف وسيطرة الاهواء والشهوات مزيتان لا ينفصلان ، وانهما معا ، ينجم عنهما الفسوق والخروج على امر الله تعالى ، ووراء ذلك النار . وقد قال سبحانه وتعالى :

« فاذا جاءت الطامة الكبرى ، يوم يتذكر الانسان ما سعى ، وبرزت الجحيم لمن يرى ، فاما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى » (١) .

وهل نحن في مجتمعنا الاسلامي عامة والعربي خاصة ، قد تجنبنا متارف الحياة ولم نأخذ منها الا بسقذار استرواح النفس ؟
الجواب على ذلك نأخذه من حاضر معان وشاهد قائم .

انظر الى ما يذاع في وسائل الاعلام من صور عاريات او شبه عاريات ، ومن لهو عابث ومن مشيرات لاحط الغرائز ، ومن شغل شبابنا وبناتنا بالمغريات .

لقد كنا نحسبه شرا واحدا وهو الانغماس في الشهوات والدعوة اليها ، والاغراء وتسهيل السبل لملء النفس منها . فاذا مع هذا شر آخر ، وهو التقليد من غير تفكير .

ان الشعب المجاهد يجب ان يتحصن بشكائهم الاخلاق الفاضلة ، وان يدرع بارادات قوية فعالة .

وهل يسكن ان يتكون جيش من شعب منحل الارادة سيطر عليه الهوى ، وشغلته متارف الحياة ؟

(١) سورة النازعات الايات ٢٤ - ٢٨ .

انه لا بد من عزمة صادقة يقوم بها المسؤولون في الدولة ، ليسنعوا ذلك بامر صارم ، ليكون جيش من شعب متحصن العزيمة يريد ما يفعل ويفعل ما يريد .

وقد يقولون ان الامم التي تقلدها في ذلك الترف المغربي قوية ، ادرعت بالحديد والسلاح ، فنقول لهم انها ادرعت بالمال والحديد ، ولكنها لم تدرع بالاخلاق الانسانية العالية والعزائم القوية .

ونرى ذلك واضحا في معاركهم . الم تر الى دولة قوية بسالها وسلاحها وكثرة عددها ، وسعة سلطانها ، قد تقف حائرة في معركة يذوب جيشها فيها ذوبان الثلج في مكان حار ، امام طائفة من الناس ، صغيرة في عددها نسييا ، الا انها مدرعة بارادة وعزيمة ، فتتصدى لتلك الدولة وتخرج موقفها الى حد ما .

٧ - الامر الثاني - انه لا يسكن تطبيق قانون الاخلاق تطبيقا سليما الا بايمان صادق ، والطاعة لاوامر الله ونواهيه ، وتتخذ الالهة ونقوض الامور من بعد ذلك لله . فلا بد من طاعة مؤمنة وتنفيذ لاحكام الشرع جملة وتفصيلا ، فهي المتضمنة لاحكام الله تعالى والاخلاق .

فالناس يرون الخير في احكام الله وحكم الاخلاق . وان الواقع في بلادنا انه يتجه بعض العابثين الى ان يجعلوا الدين كأهوائهم ، ويخرجوا القرآن على شهواتهم . وما يوافق هواهم من السنة يتبعونه ؛ وما يخالفها يردونه ، ويلوون السننهم ، وتعبث اقلامهم بسا يسونه تلوورا .

فهؤلاء خير منهم من لا يتعرض للدين بقليل ولا كثير ، لانهم يريدون الدين على هواهم ، ولا يريدون ان يكون هواهم في ظل الا

كما قال صلى الله عليه وسلم :

« لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه مسبقا لما جئت به » .

٨ - الامر الثالث الاستقامة والامانة ، فالامانة ، تولد الثقة ، والثقة
تجمع القلوب . والاستقامة تجعل المؤمن كالسيف تتكشف عنده
القلبات .

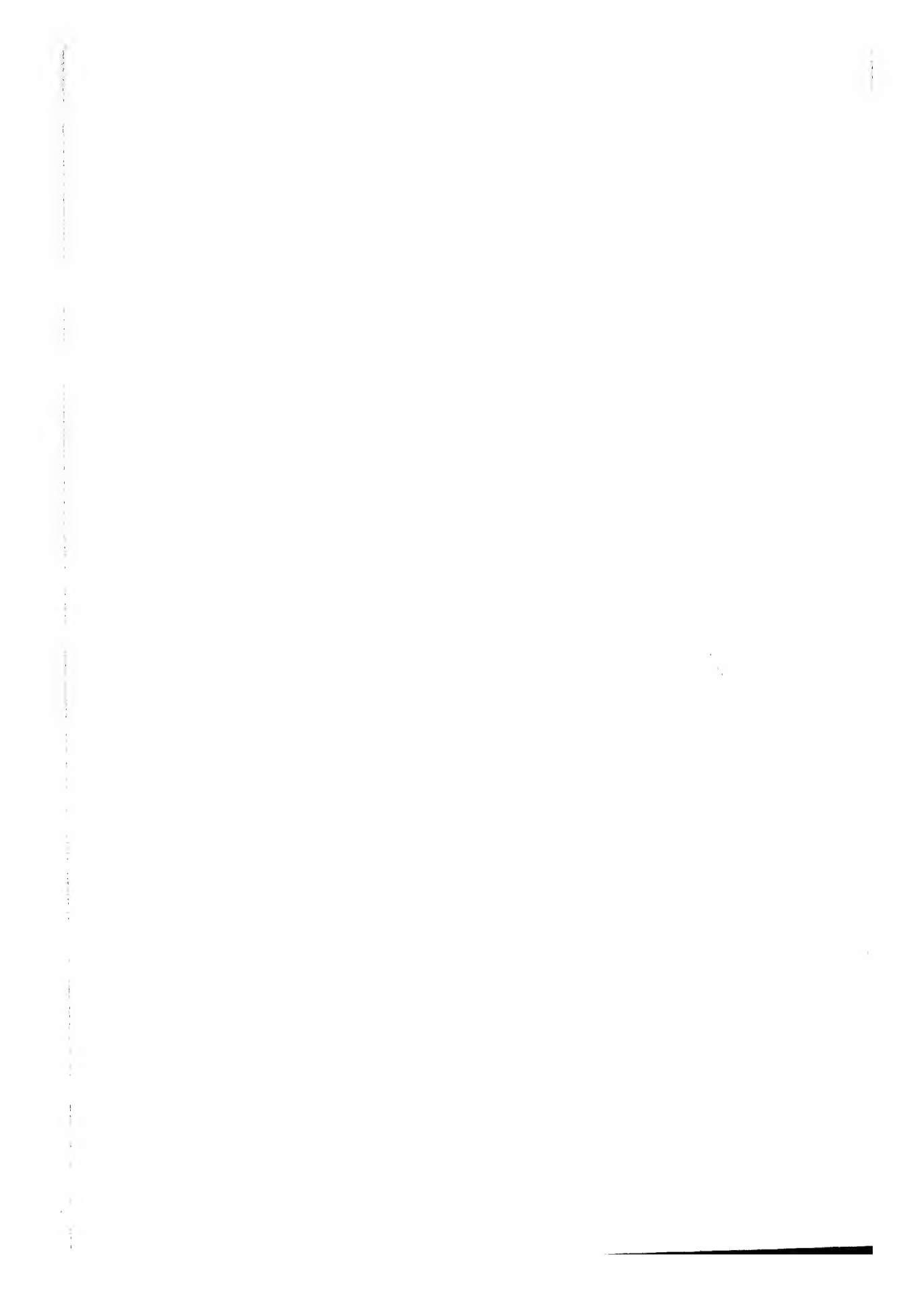
والاستقامة اساسها الاخلاص . فان الاخلاص يجعل النفس تشرق
بالحكمة ، وتنطلق بالحق وتعمل به ، وتكون المعاملة الجسنة مع الناس ،
ويكون السلوك المستقيم .

ولقد سأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم ان يوصيه بوصية ، وان
يقول قولا فيه عصمة امره . فقال عليه السلام :

« قل آمنت بالله واستقم » . فهل سارت على الامانة امورنا التي
لا تستقيم الا بالامانات يا ترى ؟ اللهم اصلح امورنا واهدنا سواء
السييل .

الدكتور محمد يوسف موسى

الدين والأخلاق



كلاهما يهدف لبيان الخير ويهدي اليه ، ويعنى ببيان الشر
وتبغيضه الينا . والاخلاق كما تقول المعاجم والكتب العلمية التي تبحث
في هذا الفرع من فروع الفلسفة ، هي مجموعة القواعد التي بها نعمل
الخير وتجنب الشر . او مجموعة قواعد السيرة الطيبة المحمودة التي
يقبلها الناس عامة في كل عصر وزمان .

فاذا كان الامر كذلك ، كان من الطبيعي ان تكون صلة قوية بين
الدين والاخلاق ، بل كان من الطبيعي ان تكون الاخلاق تابعة للدين ،
وهذا حقا ما يعرفه تاريخ الفكر في القديم والحديث .

نرى هذه الصلة الوثيقة فيما نعرف من تفكير قدماء المصريين
والهنود والفرس ، وفيما نعرف عن المفكرين اتباع الديانات الوحيية :
اليهودية والمسيحية والاسلام .

ذلك بان الغاية من الدين وبخاصة ما كان سماويا منه ، اصلاح
الانسان والانسانية وليست الاخلاق الا هذا .

كان المصريون القدامى كما نعرف ، يدينون بحياة اخرى ، يسأل
فيها المرء عما عمل في حياته الاولى . فكان من هذا حرصهم على ان
يكونوا اخيارا وفي كتاب (الموتى) على ذلك شاهد وشاهد .

ولدى الهنود ، نرى ان عقيدتهم في خلود الروح والتناسخ ووحدة
الوجود ، قد استتبعت اخلاقا تقوم على الاعراض عن الدنيا وطيباتها ، وعلى
رياضة النفس بالزهد والتأمل في عزلة وسكون ، كما تقوم ايضا على
حب الناس والكائنات جميعا .

وفي فارس موطن دين (زرادشت) الذي يقوم على الاعتقاد بالهبن ،

اله للخير واله للشر ، نجد مذهبها في الاخلاق اساسه ، ان في الانسان
صراعا دائما بين مبدئين :

١ - مبدأ النور والخير •

٢ - مبدأ الظلام والشر •

ومن ذلك ان على الانسان ان يعمل على نصره مبدأ الخير وذلك
باتباعه سبيل الفضيلة حتى ينتصر الخير في يوم آت لا ريب فيه •

هذا في الديانات الوضعية الفلسفية ، والامر في الديانات السماوية
اوضح من ان يحتاج للحديث فيه • اذ في كتب تلك الديانات ، نرى
صلة الاخلاق وثيقة جدا بالدين بل نجد ان الاخلاق جزء من الدين
وليس في هذا شيء من العجب •

ان الله العليم الحكيم هو الذي ارسل رسل هذه الاديان كلها
مبشرين ومنذرين ، هادين بوجهه الى الصراط المستقيم ، مرشدين
الناس الى سعادة الآخرة والاولى •

وهذه السعادة تكون بالعقيدة الصالحة ، كما تكون بالاخلاق
الطيبة المحمودة ، وبهذا نزل الوحي وجاء الشرع • وان كان الباحث يجد
في غير عناء المثل العليا للسيرة والسلوك تختلف فيما بينها في هذا
الدين عن ذاك باختلاف عصور الوحي والرسالات •

ومن المهم ان نشير هنا الى ان اخلاق هذه الديانات تقوم على
الترغيب والترهيب • على الترغيب في الخير بما وعدت من الثواب عليه،
وعلى الترهب من الشر ، بما رتب عليه من عقاب •

ولم تر ان تدعو للخير ببيان ما فيه من حسن وجمال ولياقة بكرامة
الانسان والانسانية ، ولا ان تبغض في الشر ببيان ما هو عليه من قبسح

في نفسه وتناف لكرامة الانسان كأنسان .

كما من الضروري ايضا الى ما لوحظ من ان كثيرا من الملحدين الذين لا يؤمنون باله خالق ولا ب حياة اخرى يكون فيها الجزاء على اخلاق فاضلة وخلال محمودة من الناحية الاجتماعية .

بينما كثير من المؤمنين بهذا الدين السماوي او ذلك ، لا يعرفون من الخير الا اسمه ، ولا تتفق اعمالهم مع اقوالهم وعقيدتهم الدينية .

ولعل هذه الملاحظة وتلك ، هو ما دعى بعض الفلاسفة والمفكرين المحدثين الى محاولة فصل الاخلاق عن الدين . وذلك بتعديل احكامها عقليا ، والبحث عن اسباب ومبادئ اخرى تدفع للخير وتحجب فيه وتبعد عن الشر وتجعله بغيا ، دون حاجة الى اللجوء للدين وما يرتبه من جزاء على الخير والشر . وبذلك يؤمن بالاخلاق المنادين والملحد على السواء .

وان اصحاب هذا الرأي ، او ان رجال هذه المدرسة وعلى رأسهم (اميل دور كايم) الفيلسوف الفرنسي المعروف ، يقولون بان من الممكن فصل الاخلاق عن الدين ، وجعلها عقلية في مبادئها ووسائلها ، كما يرون بان هذا من الخير ، اذ يعين على الوصول للغرض الذي تهدف اليه الاخلاق .

انهم يرون بان يكون هذا العمل خيرا والآخر شرا ليس الا حقائق لها وجود ، وكل ما كان كذلك يجب ان يكون من الممكن تفسيره بالعقل وحده دون حاجة للجوء للدين او فلسفة ما بعد الطبيعة .

ولم تعد قدرة العقل على تفسير كل حقيقة من هذا الضرب او غيره موضع شك او عجب ، بعدما رأينا من تقدم علوم الطبيعة والحياة

والنفس ، هذا التقدم الذي فهم به الانسان الكون ، ودانت له عناصر الوجود او كادت .

فاذا كان الامر هكذا في غير الاخلاق ، فلماذا لا يكون كذلك في الاخلاق ؟ ولم نحتاج - في رأي دوركايم - في سبيل تثبيت الاخلاق في العقول والطباع ، ان نلجأ الى طريق يعز على العقل ادراكها ، ان نلجأ الى الدين او ما بعد الطبيعة .

على انه لا يصح في سبيل جعل الاخلاق عقلية ان نحذف منها كل ما جاء عن الدين ، والا صارت اخلاقا هزيلة ليس لها من اساس . ان الواجب ان نبحث عن المبادئ الاخلاقية التي جاءت من السماء ، وان نحدد بعد هذا طبيعتها الخاصة وان نعبر عن هذه المبادئ بلغة علمية عقلية .

ثم للاخلاق طابع قدسي خاص ، طابع الزامي لا يمكن عدم الاعتراف به او الخروج عنه ، حتى انه قد يقبل ان يلحد المرء في دائرة العلم فلا يؤمن ببعض حقائقه ، ولكن لا يقبل بحال ان يلحد في الاخلاق . وهذا الطابع هو ما يعجل للاخلاق قوتها واثرها الكبير في العلم والمتعلم معا .

هذا الطابع يجب اذا الاحتفاظ به، ولكن فيما يقول دوركايم - ليس من الضروري رده للدين او لمبادئ ما فوق الطبيعة ، بل من الممكن تفسيره عقليا في سهولة ويسر .

وقد يمكن التفسير باسناده الى ما يجب للانسان والجماعة من كرامة وتقديس ، وذلك ، يجعل ما يتصل بهما من الناحية العملية مقدسا كذلك .

ولنتيجة ذلك كله ، ان يكون في الامكان ان نغرس في الطباع حب الخير لانه جميل في نفسه ، وكرهه الشر لانه قبيح بغيض في نفسه ، دون ضرورة الى اللجوء للترغيب والترهيب •

ومن مثل هذا المبدأ العام ان يفهم الانسان ان من حقه وكرامته على نفسه ان يحترم ما فيه من انسانية ، فلا يكذب ولا يكون جباناً مثلاً • وان يفهم كذلك ان من واجبه لغيره ان يحترم ما فيه من انسانية فلا يغشه او يخذعه ، وهكذا يمكن بهذا المبدأ او ذاك غرس الخير وحب الفضيلة في الطباع بعد ان يقتنع العقل تماما ان ذلك جميل وحسن ومحجوب لذاته •

* * *

واخيراً ، فان فصل الاخلاق عن الدين لنكون علماً عقلياً ، اي اللجوء الى العقل للتحبيب في الخير والتنفير من الشر ، قد يكون له تأثيره الكبير في غير المؤمن بالدين ، الدين الذي يلجأ في التحبيب الى الفضيلة والتنفير من الرذيلة الى الترغيب بالثواب والترهيب بالعقاب •

الا انه قد يلاحظ مع هذا ايضا ان ربط الاخلاق بالدين لا يمنع الباحثين من جعلها علماً عقلياً ، وذلك بتفسير الاصول التي تستند اليها والمبادئ التي تقول بها تفسيراً عقلياً ، كما هو الشأن في كل ما جاء به الدين من احكام وتشريع •

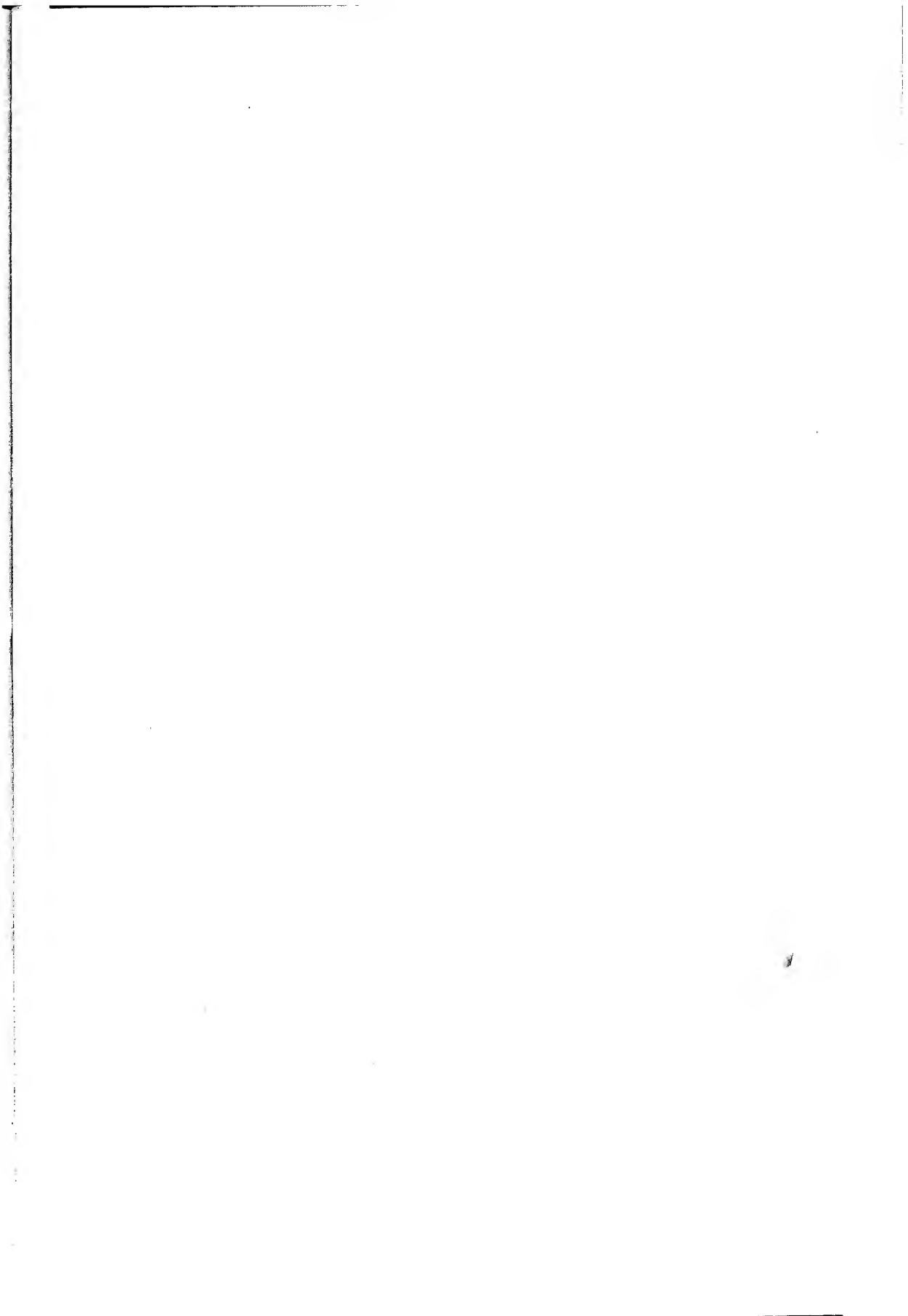
ان القرآن كان حكيماً كل الحكمة بما اكد من ثواب وعقاب على عمل الخير والشر • ذلك ضروري اول الامر حتى يعتاد المرء على عمل الخير وحتى يذوق حلاوته ، وحينئذ ليحله نفسه ، وينتهي عن الشر لنفسه لا للثواب ولا للعقاب •

حتى هذه الايام ، لم يصل الفلاسفة والمفكرون في هذه الناحية ،

مع الرغبة وطول البحث ، الى شيء آخر غير الدين يمكن ان تستند اليه
الاخلاق ، ويكون له طابع القدسية والالزام الذي نجده للدين ، هذا
الطابع الذي هو جد ضروري للاخلاق ، حتى في رأي هؤلاء الفلاسفة
الاجتماعيين العقلين .

الدكتور محمود فياض

للامم من نهج اخلاقي



حرص الاسلام على ان يكون فعل الخير والتزام الفضائل ، وترك الشر وهجر الرذائل • خالصا لوجه الله ، لا لمنفعة خاصة ، عاجلة او آجلة ، تعود على الشخص من الفعل او الترك ، نلمح ذلك في قوله تعالى : « من يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله » •

ومعنى هذا ان من خرج مهاجرا الى غرض خاص فان اجره يقع على نفسه • ويفسر هذا بوضوح قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه » • فحسابه على نفسه لا على الله •

وهذا واضح في ان الاسلام يلزم بالخير لذات الخير ، ويأمر بالفضائل لانها فضائل • وان المؤمن الصادق يفعل الخير حبا في الخير • وليس هذا فحسب ، بل ان توجيه الاسلام الانسان الى فعل الخير والتزام الفضائل لذاتيهما يقوم على الالتزام ، لا على التخيير ، فهو يلزمك بالصدق لان الصدق يجب ان يلتزم ، ويلزمك باجتنايب الكذب ، لان الكذب يجب ان يجتنب • كما يلزمك بالفضائل كلها ، لان الفضائل يجب التزامها ، والرذائل يجب اجتنابها ، ومن ابتغى غير ذلك فقد ظلم نفسه • ولقد ضلت الانسانية قرونا طويلة ، ولم تهتد الى مفهوم الخير والشر ، ثم خطا الاسلام بها خطوة واسعة ، فهو في الوقت الذي يأمر فيه بفعل الخير وترك الشر ، يحدد لك مفهوم الخير والشر تحديدا واضح المعالم لا تضل بعده ولا تشقى •

فهو يعلن ان كل ما يحقق مصلحة للفرد او الجماعة ، او يدفع ضررا عن الفرد والجماعة ، فهو خير يجب ان يفعله المؤمن ابتغاء وجه الله • كذلك كل ما يعطل مصلحة او يلحق ضررا بالفرد او الجماعة ، فهو شر يجب ان يترك لوجه الله •

والمؤمن في فعله او تركه يقصد بالعمل وجه الله ، لان الله هو المشرع ومن حقه ان تطاع او امره • ومن واجب المؤمن ان يمثل امر الله من غير تردد ، او تشكك •

ومن هنا نرى ان الاسلام هو اول داع الى الخير لذات الخير ، والى الفضائل لانهما فضائل • وان دعوته الخلقية ، تقوم على اعداد روح خاص ، يطهر النفس ويزكيها ، ويجعلها محلا لتقبل الامر بفعل الخير والتزام الفضائل ، ابتغاء وجه الله ، والتقرب الى الله ونشدان الكمال •

وهذه الدعوة المثالية الى الخلق الكريم ، لم تعرف لها البشرية صفة ومنهجاً واضحاً قبل الاسلام ، مما يجعلنا نقرر في غير تردد :

ان الاسلام هو استاذ جميع المذاهب الاخلاقية « الواجبة » ، لا سيما المذاهب الحديثة التي ظهرت بعده ، والتي فتنت بعض « المستغربين » من المسلمين •

فالاسلام - باتفاق العلماء في الشرق والغرب - وجه الحياة الانسانية كلها عند المسلمين وغير المسلمين ، وأثر آثارها واضحة معترفاً بها في جميع العلوم والآداب التي انتجت نهضة اوروبا •

غير ان الاسلام يمتاز عن هذه الآراء الفردية ، بتحديد معنى الخير والشر ، تحديداً واضحاً ليس فيه لبس ولا غموض • بينما تجد هذه المذاهب غير متفقة على ما هو خير او شر ، ولم يحدد مذهب مفهوم

كلمتي الخير والشر تحديدا سليما واضحا يقبله العقلاء .

ولقد كانت عناية الاسلام عظيمة بتربية الخلق الفاضل في الفرد والجماعة ، وقد عبر عن هذه العناية ابلغ تعبير محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » .

وكان من خير ما امتدح الله به رسوله الكريم قوله تعالى : « وانك لعلى خلق عظيم » ، لانه تربية الله الذي اصطفاه ، وادبه فأحسن تأديبه :

وانك لتجد في كل آية من القرآن دعوة ، الى اصل من اصول الخلق الحسن . وتجد كل مبدأ اسلامي يرشدك الى نمط من انماط مكارم الاخلاق .

ولقد كان جواب العربي لمن يسأله عن دعوة محمد ، هو ان مهمة محمد عليه الصلاة والسلام ، مهمة اخلاقية اولا ، وهي تزكية النفوس وتطهيرها من ادران الفساد واوزار الوثنية ، اقرأ :

« كما ارسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة » .

« لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .

« خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم . ان صلاتك سكن لهم » .

وتبلغ هذه الروعة اقصى غاياتها ، عندما يرجع القرآن الكريم نجاح النبي عليه السلام في دعوته الى مسألة اخلاقية :

« فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من

حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم ، وشاورهم في الامر » •
وافهم ما شئت بعد ذلك مهمة القرآن الكريم من قوله تعالى :
« ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم » •

وكما يمتاز الاسلام في العقيدة ونمط العبادة ، يمتاز ايضا في
تشريعاته للمعاملات الانسانية كلها عن جميع التشريعات القديمة والحديثة
بمميزات اظهرها واجلاها ، ما اتفق عليه المنصفون الذين قارنوا الشريعة
الاسلامية بالقانون الروماني ، من ان التشريع الاسلامي يمتاز بعنصر
اخلاقي ، له صفة الازام في كلياته وجزئياته ، من شأنه ان يحمل المكلف
على الامتثال والتنفيذ للاوامر والنواهي ، من غير تردد في الفعل او
الترك ، لانه يقوم بما يقوم به ، على انه دين لازم يتعبد الله به • ومن
واجب المؤمن ان يستجيب لله الذي يأمر بكل جميل ولا يأمر بالفحشاء لا
على انه قانون بشري يخضع للجدل في سبيل اظهار وجه الخير والمصلحة
فيه • ولهذا العنصر الاخلاقي ، كانت الشريعة الاسلامية - عند فقهاء
المقارنة - مستقلة غير مستمدة من التشريع الروماني •

واذن فتكاد تجد مهمة الاسلام ، ومهمة رسوله عليه الصلاة
والسلام ، مهمة اخلاقية !

فما الاخلاق اذا لم تكن هي تهذيب النفوس وتركيتها وتطهيرها ؟
ثم ما هو الدين اذا لم يكن تنظيما للسلوك العام للانسان مع
خالقه ، ومع بني آبيه ؟ وما الدين اذا لم يكن هو حسن الخلق ؟

للاسلام اذن منهج اخلاقي ممتاز ، تتمثله في كل آية من القرآن
الكريم ، وكل حديث للنبي الكريم ، في كل امر ونهي ، وفي كل مبدأ
من المبادئ • فاذا لم يكن للاسلام منهج اخلاقي في دعوته الى الخير

والجمال ، والتزام الفضائل ، بغية الكمال ، فكيف واين يكون هذا المنهج المستقيم ؟

ما هذه المذاهب الاخلاقية التي تفرق او تقارن بالاسلام ؟ هل يراد ان تكون « خلفية الاسلام » الجميلة الواضحة ، مثل ما تدعو اليه المذاهب الاخلاقية ؟ وهي آراء افراد غير معصومين عن الخطأ ، وهم مظنة الهوى ولم يسلم واحد منهم من التجريح ؟

ثم هي بعد ذلك آراء مجروحة ، وكثيرا ما اتخذها اللاحقون اداة سخرية بالسابقين . وهل يريد اخواننا « المستغربون » ان يكون للاسلام مذهب في الاخلاق كمذهب « زينون » الرواقي او كمذهب « ابيقور » او كمذهب « كانت » او « سبنسر » ؟

وهل يريدون ان يخضعوا منهج القرآن الاخلاقي للجدل والتجريح على الطريقة التي يتناولون بها مذاهب هؤلاء الاخلاقيين ؟

ما بالناس نسمع اليوم اناسا ينسبون الاسلام الى مذاهب افراد في السياسة او الاجتماع او الاخلاق فهل سر هذا هو الجهل بالاسلام او الكيد للاسلام ؟

نسمع مثلا « الاشتراكية الاسلامية » او « الديموقراطية الاسلامية » وليس للاسلام مذهب اخلاقي . فما هذا ؟

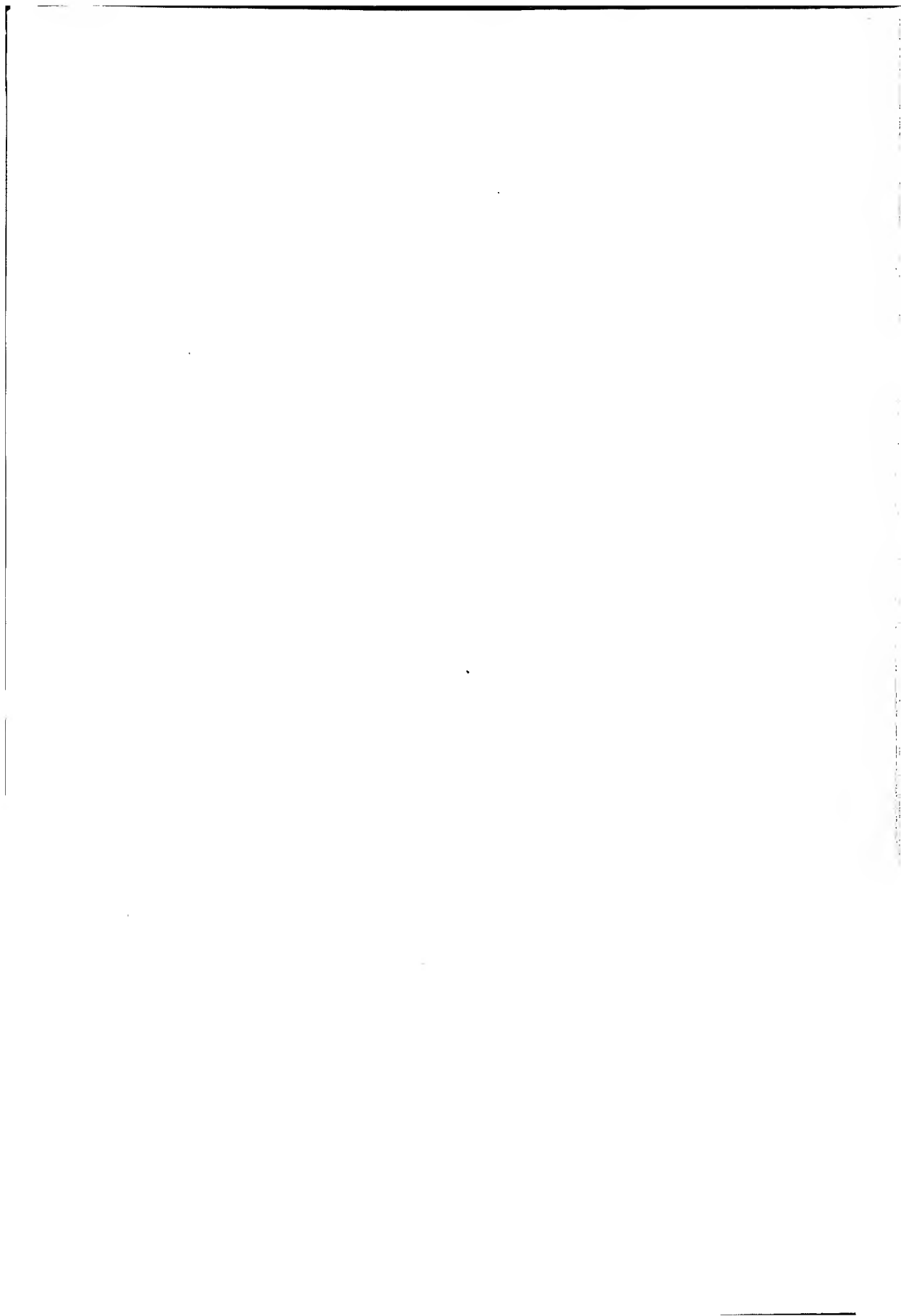
ان الاسلام لا يعرف الاشتراكية ، ولا يعرف الديموقراطية ، ولا المذهبية . وانما الاسلام دين وشرع ، له خصائصه ومناهجه التي يتميز بها في الحكم والسياسة والاجتماع والاقتصاد والاخلاق .

للاسلام كيان خاص و« شخصية معنوية » خاصة ، وهو سابق غير مسبوق في كل ما قرره في مسائل الحكم وسياسة الشعوب ، ونظام

الاجتماع البشري •
فكيف يستساغ عند بعض « المستسلمين » ان يغمطوا الاسلام بنسبته
الى افكار ظهرت بعده وتلمذت عليه ؟ وكيف ينسب السابق الى اللاحق
والعكس هو الصحيح ؟
ان من حق الاسلام ان يحكّم في هذه الافكار وان تنزل هي عليه ،
ان وجدنا الى ذلك، سبيلا :
« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا
يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » •

عبد الحميد العبادي

كيف كان الرسول
يسوس أصحابه



لقد تحدث المؤرخون فأكثروا من قدرة الاسكندر قديما ونابليون حديثا ، على اختيار الرجال وأجتذابهم واصطناعهم ، فوصفوا صبر اصحاب الاسكندر ، على احوال حروبه المتلاحقة ، ومشاق اسفاره البعيدة المترامية ، وبينوا كيف بلغ من اخلاص اصحاب نابليون له انهم عندما سيرهم لويس الثامن عشر لقتاله بعد فراره من جزيرة البا ، لم يسعهم الا ترك صفوفهم والانضمام الى نابليون * فاضطر لويس الثامن عشر للخروج من فرنسا جملة *

ولكن هؤلاء المؤرخين انفسهم يذكرون مع ذلك ان الاسكندر عندما طوحت به فتوحه الى اقاصي المشرق واراد التوغل في بلاد الهند ، امتنع عليه جنده ، وحملوه على ان يعود بهم ادراجه ، وان رجال نابليون لم ينتصروا لقضيته بعد كسرتة في واترلو * بل ان قائدا من اشجع الشجعان هو المارشال (ناي) كما لقبه نابليون ، قد اضطرب في ولائه بين آل بوربون ونابليون ، فجر بذلك على نفسه البوار *

ليت اولئك المؤرخين اطلعوا على سيرة محمد بن عبدالله ! اذا لعلموا ان الرسول العربي قد بذ الاولين والآخرين في فن اختيار الرجال واجتذابهم واستخلاص طاعتهم له ولدعوته في حياته وبعد مماته * ذلك بأن محمد بن عبدالله لم يكن يتنزل من اصحابه منزلة ، فاتح مغامر ، ولا منزلة جبار يريد علوا في الارض ، ولكن منزلة الاب الشفيق ، والمعلم الحكيم ، والطبيب العالم بادواء النفوس واساليب علاجها * وكان عليه الصلاة والسلام يروض اصحابه ويسوسهم على هذا الاعتبار وحده * ونحن نقص على القارىء من سيرته عليه الصلاة والسلام مع اصحابه

بعض ما يوضح هذه الرياضة ويجلو تلك السياسة •

عندما هاجر الرسول واصحابه من قريش الى المدينة ، رأى ان يحكم اسباب المودة بين المهاجرين والانصار • فعمد الى المؤاخاة بين الفريقين • فكان يؤاخي بين المهاجري والانصاري • مرتبا على تلك المؤاخاة وجوب التناصر والتعاون في الحياة ، والتوارث بعد الموت •

وقد ظل هذا التوارث جاريا على هذا النظام الى ان شرعت احكام الميراث ، فصار التوارث يجري عندئذ على مقتضاها •

الا ان فريقا من اهل المدينة يتزعمهم عبدالله بن ابي ، وقفوا من الدعوة الاسلامية وصاحبها ، موقف العناد والمعارضة ، ونظروا الى الرسول والمهاجرين نظرا الى قوم دخلوا عليهم بلدهم وزاحموهم فيه ، واستبدوا به من دونهم ، فكانوا يتطلعون الى الافلات من النظام الجدد والعود الى الحال السابقة في المدينة •

هؤلاء هم المنافقون كما سماهم القرآن الكريم وعرفتهم السيرة النبوية • ولقد لقي الرسول منهم عنقا شديدا ، ولكنّه كان يداريهم ويحتاط منهم في اناة ورفق يستثيران منتهى الاعجاب •

من ذلك ما حدث في غزوة بني المصطلق في السنة السادسة للهجرة ، فانه لما فرغ الرسول من قتال بني المصطلق ، اقبل المسلمون على ماء هناك يستقون منه ويستقون ، فازدحم على الماء واقتتل عليه رجالان ، احدهما يقال له جهجاه الغفاري ، كان اجيرا لعمر بن الخطاب • ويقال للآخر سرار ابن وبرة الجهني كان حليفا للانصار •

فصرخ الجهني : يا للانصار ! وصرخ جهجاه : يا للمهاجرين ! فغضب من ذلك عبدالله بن ابي ، وطلق يالوم من كان حاضرا من قومه لانهم

احلوا للمهاجرين ديارهم ، وليج به الغضب حتى قال :

« لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل » •

وهي المقالة التي سجلها القرآن الكريم • وبلغت مقالة ابن ابي رسول الله فاغتم لذلك غما شديدا • وكان عمر بن الخطاب عنده ، فأشار عليه بقتل ابن ابي ، فأجابه الرسول : « فكيف يا عمر اذا تحدث الناس بان محمدا يقتل أصحابه ؟ » •

ولكي يشغل الرسول الناس عن التحدث في هذا الامر ، امر من فوره بالرحيل ، وذلك في ساعة لم يكن من عادته ان يسير فيها • وراح عليه السلام واصحابه يطوون المراحل ويصلون الليل بالنهار سيرا وسرى حتى بلغوا المدينة • واذا بالحال قد تغيرت من جميع وجوهها •

فهذا عبدالله بن ابي قد اتى الى الرسول يحلف له انه ما قال ما بلغه عنه • وهذا ابنه يطلب الى النبي ان كان لا بد آمرا بقتل ابيه ، ان يتولى هو اي الابن قتله • فيقول له الرسول :
« بل تترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا » •

وهؤلاء رهط عبدالله بن ابي ، قد استخزوا لسلوكه ، واصبحوا كلما احدث حدثا ، هم الذين يعنفونه ويؤنبونه •
هنالك اقبل الرسول على عمر بن الخطاب وقال له :
« كيف ترى يا عمر ؟ اما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله ، لارعدت له آنف لو امرتها اليوم بقتله لقتلته » •
فقال عمر :

« قد والله علمت لامر رسول الله اعظم بركة من امري » •

والى القارىء مثلا آخر قد يكون ابلغ مما تقدم في بيان ما نحن
في صدده .

رووا انه لما فرغ الرسول من صلح الحديبية ، رأى اكثر من كان
معه ، ان الرسول عليه السلام اعطى في هذا العهد لقريش ، اكثر مما
أخذ . فهم لم يدخلوا مكة في عامهم ذلك ، بل سيعودون من حيث اتوا .
كما قبل الرسول ان يرد على قريش كل من اتى اليه منها بغير اذن
وليّه ، والا ترد اليه قريش من يأتي اليها ممن هو مع محمد .

وفوق ذلك قد رد الرسول الى قريش ، ابا جندل بن سهيل بن عمرو ،
وهو رجل مسلم ، انقلت الى جماعة المسلمين بعد تمام عقد الصلح .

وساور الناس غم شديد اشرف بهم على الهلاك ، حتى انهم عندما
امرهم النبي ان ينحروا بدنهم ، ويحلقوا رؤوسهم لم يطعه منهم رجل
واحد .

فدخل الرسول على زوجته ام سلمة ، وذكر لها ما لقي من الناس ،
فقال له : اخرج ثم لا تكلم احدا منهم بكلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو
حالك فيحلقك .

فقام الرسول ، فخرج فلم يكلم احدا منهم كلمة حتى نحر بدنته ،
ودعا حالقه فحلقه . فلما رأى القوم ذلك توابوا ينحرون ويحلقون .

وفي رواية ابن اسحق ، عن ابن عباس ، انه حلق رجال يوم
الحديبية ، وقصر آخرون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يرحم الله المحلقين » .

قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟

قال : « يرحم الله المحلقين » .

قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟

قال : « والمقصرين » •

فقالوا : يا رسول الله ، فلم ظهرت التراحم للمحلقين دون المقصرين ؟

قال : « لم يشكوا » •

ويروون انه كان عليه الصلاة والسلام ، قد خصص المؤلفة قلوبهم من قریش وقبائل العرب من غنائم هوازن بعظايا جسام لم يعط مثلها احدا من الانصار ، فوجد الانصار في انفسهم حتى قال قائلهم :

لقي والله رسول الله قومه •

ودخل عليه سعد بن عبادة وابلغه رأي قومه ، فقال له الرسول :

« فأين انت من ذلك يا سعد ؟ »

قال سعد : ما انا الا رجل من قومي •

قال عليه الصلاة والسلام : « فاجمع لي قومك في الحظيرة » •

فلما جمعهم سعد اتاهم الرسول ، فحمد الله واثنى عليه بما هو اعله

ثم قال :

« يا معشر الانصار ! مقالة بلغتني عنكم وجدة وجدتموها عليّ في

انفسكم ؟ ألم آتكم صلاحا ، فهداكم الله ، وعالة فاغناكم الله ، واعداء

فألف الله بين قلوبكم ؟ » •

قالوا : بل الله ورسوله امن وافضل •

ثم قال : « الا تجيبونني يا معشر الانصار ؟ »

قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل •

قال : « اما والله لو شئتم لقلتم ، فلصدقتهم ولصدقتم ، اتيتنا مكذبا

فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فأويناك ، وعائلا فأسيناك ،

اوجدتم يا معشر الانصار في انفسكم لوعة من الدنيا ، تألفت بها قوما
ليسلموا ، ووكلتكم الى اسلامكم ؟

الا ترضون يا معشر الانصار ان يذهب الناس بالشاة والبعير
وترجعوا برسول الله الى رحابكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا
الهجرة لكنت امرا من الانصار ، ولو سلك الناس شعبا ، وسلكت
الانصار شعبا لسلكت شعب الانصار . اللهم ارحم الانصار وابناء ابناء
الانصار » .

قال ، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا :

رضينا برسول الله قسما وحظا . ثم انصرف رسول الله وتفرقوا .

* * *

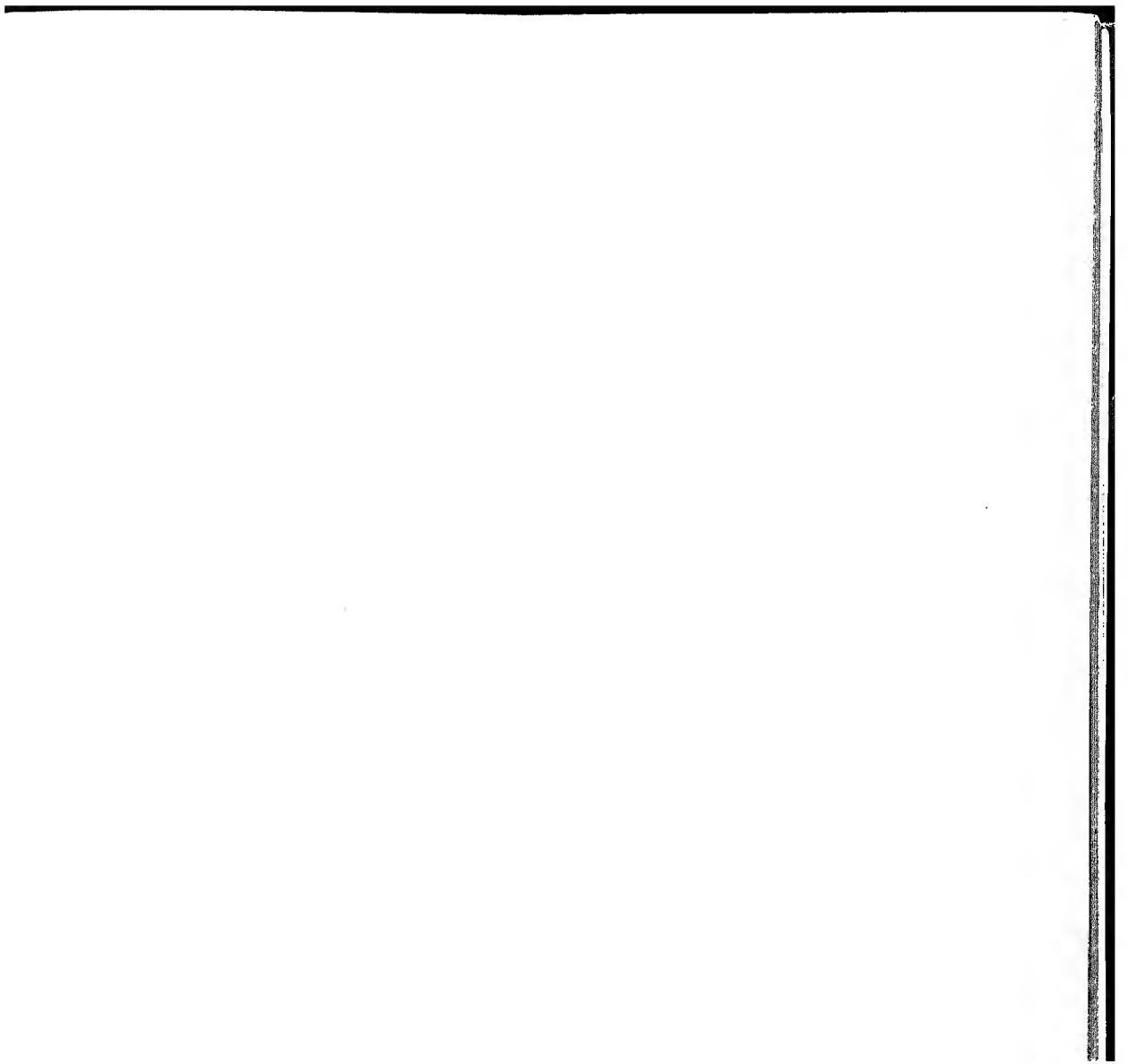
من هذه المثل تتبين الاسس التي كانت تقوم عليها سياسة الرسول
عليه السلام لاصحابه .

كانت سياسته هذه تقوم على جمع الكلمة والحلم والرفق ، فبذلك
كان عليه السلام يقتاد القصي ، ويتألف النافر ، ويحمل المحسن على ان
يزداد احسانا .

على ان الامر لم يكن مجرد تأليف وحلم ورفق ، بل كان من وراء
ذلك كله الاسوة الحسنة والروح المتدفق ، والقلب الرحيم ، والخلق
العظيم ، والعلم بطبائع النفوس واسرارها الذي لا يدرك كنهه ولا
يسبر غوره .

عَبْدُ الْمَنَعِمِ خَلِيفٌ

الْإِسْلَامِ وَالْمَعْنَى الْأَبْدِي
بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ



القرآن ينزل المعتزك الابدي بين الخير والشر في الارض منزلة الاعتبار والاعتراف به ، ويدعو معتنقي مبادئه الا يهملوا النظر الى هذا العراك وما وراءه من نتائج ، وان يحملوا انفسهم على الاخذ باسباب الالهة للانخراط في سلك المحاربين في صفوف الخير ، حربا لا هوادة فيها ولا تخاذل ، ولا غفلة من ان الشر اذا وجد سبيلا الى السيطرة على الخير فلن يرحمه ولن يتركه للحياة •

انهما ضدان ابديان ، احدهما مبصر ذو رحمة ، والثاني اعمى ذو بطش شديد •• هما قانونان طبيعيان لهما ما لقوانين الطبيعة المادية من هرامة وآثار ، ولكن مجالهما النفس ذات العالم المائع الذي لا حدود بين امواجه الا ما يقيمه الفكر من حدود اليقظة والادراك ، والا ما يقيمه الدولة الرشيدة من وسائل التربية والتنبيه •

وكما ان الناس يخشون ان يمدوا ايديهم الى منبع كهربائي خوف الصعق والاحترق •• كذلك يجب ان يخشوا ان يمدوا نفوسهم واخلاقهم الى منابع الشر خوف الصعق والاحترق والضياح بين قوى الكون العمياء ، التي ليس فيها الا بصيرة واحدة هي منطقة « الضمير » الذي هو قبس من روح خالق الوجود •

ليس في القرآن صوفية بلهاء تمحى عندها الحدود بين الخير والشر ، ويختلط عالمهما ، وانما فيه رحابة هي عفو القادرين وسماحة المرين الذين يعطون الطفولة البشرية حقها من فرص الاتعاط الذاتي •• وفيه سماحة الرعاة الذين يتركون القطيع يرتع في باحة الحدود

المرسومة ، ويفغفرون له اللوم الاجتماعي السذي لا يضير الاسس
الاسيلة للحياة ..

ولكنهم مع ذلك يفظون غاية اليقظة للحدود ، لا يدعون فيها ثغرة
ينحدر منها اعداء الاجتماع : من قوى الشر والاثم والجريمة والجهالة
التي تتخطف النفوس البريئة كما تتخطف الذئاب والثعالب الحملان
الوديعة والاطفال الرضيعة في غفلة من الحراس *

القرآن يعتبر الشر كنمر غاشم يهجم دائما ولا يرتد ، فهو يهاجمه في
اغلب آياته ممثلا في اشخاص الفجار والجناة على الحياة ، الذين هم
ثمرات معطوبة ، من ثمرات الانسانية ، تنقل العطب والفساد والمحق الى
سائر نبات الحقل الانساني ، فيجب تطبيقها اولا واعطاؤها فرص العلاج
والشفاء ، فان صحت كان في صحتها نماء وبركات وزيادة في المحصول
الانساني الصالح ، وان لم تصح كان من الواجب اهدارها وبترها ، وحسم
دائها ان يتسرب الى الثمرات الصحاح التي فيها رجاء الحياة وتقدم
خطواتها في طريق النمو والارتقاء !

هؤلاء يريدون ان يجعلوا الدين صورة من التسامح المطلق على
دواعي هذا المعترك ، انهم لم يفقهوا الحياة فلم يفقهوا الدين *

لم يفقهوا الحياة لانها ما زالت ولن تزال تكذبهم وتأخذ الناس الى
غير ما يتوهم هؤلاء ، لان المعترك يزيد على الايام حدة وشدة وتعقدا
وايغالا في ساحات الصراع والصدام والمنافسة والمغالبة .. وهؤلاء
يثنون فيه انين نساء ضعاف او حملان وديعة تشغوا بين الذئاب ، فتمزق
انياب الذئاب حناجرها !

ومعركة الحياة هذه لها عذرها الواضح في انطلاقها الآن بدون قيود

الإديان ، لان اغلب الإديان السائدة تدعوها الى غير ما في طبيعتها ••
وقد صارت حياة قوية السلطان ، بالغة الحجج والآثار ، واصلة الى أعماق
النفوس ، تنتزع حججها من دماء الناس التي تغلي في العسروق ،
وشهواتهم التي تحتدم في الأبدان ، ومن روابط الشبكة القوية التي
تربطهم بالأرض ربطا وثيقا •

فكيف تضحي الانسانية بكل هذه الدواعي القاهرة وتعصاها ،
وتنحاز الى تلك الاصوات الخافتة التي وقف اصحابها على شاطئ
اللجة يقولون للغرقى والسابحين : مالكم هكذا تفرقون ••• ! سيروا على
الماء بالأقدام •• واعبروا المحيط بدون ابتلال ••

لا ! لا بد من نزولكم ايها الدعاة الى اللجة تصارعون امواجها ،
وتحسون ثقل اعبائها ، وتقاسون عذاب الخبط فيها بالايدي والارجل ،
ويصيبكم البهر والاعياء من شهيق وزفير متلاحقين ، لتنجوا هؤلاء
الغرقى بايديكم ، وبسفن الاتقاذ واطواف النجاة العملية ، بدل ان تحاولوا
نجاتهم بالكلام ومد الايدي اليهم من الشاطئ البعيد •

وقد كان اكثر الذين حملوا الاسلام الاول تجارا وسياسيين ،
وفرسانا تمرسوا بأسباب الحياة وعركوها اختبارا وابتلاء ، ولم يكونوا
بعزلة عن العقل العام للعرب والامم المجاورة لها ولم يكونوا عجزا او
معتوهين او اذلاء وذوي عاهات ضاقت بهم سبل العيش ، فجاءوا
يحترفون الدين للارتزاق بحكاية قضاياهم ومسائلهم ، بل حملوه الى الدنيا
حمل جهاد به في كل سبيل من سبل الحياة العملية المادية ، ونزلوا
بكلماته الى الاسواق والحقول والمصانع والجيوش ، كما درسوها في
المعاهد والمساجد •

يجب ان يشعر الذين يؤمنون بالمثل العليا ، انهم مضطرون الى
مواجهة الحياة الحالية بالوضع الآتي :

ان يكافحوا عوامل الشر والفساد بوجوه كالحجة كوجوه اهل الشر
والفساد ويجاهدوها بمنطق الخديعة والقسوة وادراك الموقف ، ولا
يبيتون البلاهة والغفلة عن مقتضيات الحال ••

وان يحتضنوا بيدهم الاخرى المثل العليا ، وينموها في مناطق
نموها المأمونة ويخلوا اليها يحدثونها ويكرمونها واهلها ويصطفون معهم
منطق السمو والكمال والرحمة ، والاغتفار ومراعاة مقتضيات
الحال كذلك •

اي انهم يكونون كمن يضم ابنه بيد رفيقة لينة ، ويكافح عدوا
يهاجمه ويهاجم ابنه بيد اخرى قاسية باطشة ، فلا بد له ان يكون يقظ
الفؤاد لما يقوم به من عمل مزدوج متناقض •

وهذا الازدواج في الشخصية ، الذي تحتاجه البيئة في عصور
الانتقال والاضطراب ، يكلف اصحابه ثمنا غاليا من التمزيق والتبضيع ،
ومشقة السير بخطوتين في طريقتين في آن واحد :

الا انه موقف لا بد منه لكل نفس آمنت بالحق في زمن الكفر به ،
وانتدبت قواها للدفاع عنه ، وتريد في الوقت ذاته الا تضيع في معركة
الحياة المعاشية في امم لا تدرك احبابها وخدامها الحقيقيين ، ولا ترحمهم
ولا تبالي بهم في اي واد هلكوا وهلكت ذريتهم من الجوع والحرمان !

لقد جابهت نفس رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، العالم
الوثني والكتابي بروح سامية رحبة حسنة الظن في اوائل عهدها بالدعوة ،
وحسبت ان الحق الواضح عندها ، لا بد ان يكون واضحا لديهم

فيسرعوا اليه ولا يكلفوها عناء في قبوله ، فكانت تفيض بالسلام والكرم مع اعدائه واعداء الحق •

ولكنه بعد ثلاثة عشر عاما ، تبين ان الشر عنصر عريق خالد له جنوده وسدنه وكهان يعيشون به ، ويدافعون عنه ، كما يعيش هو للخير والحق ويعني لهما ويدافع عنهما •

وقد مكث تلك الثلاث عشرة سنة يدعو بالحسنى ، ويقلب الحجج على كل وجه ، ويتحمل الاذى ما كان يجب ان يفتح العيون وينبه الاذهان الى ان رجلا يتحمل مثل ما تحمله جدير ان يكون موضع الاعتبار والتفكير والافتناع بصدق دعوته والقفو على آثاره •

ولكن دولة الباطل وسدنها وكهانها دولة فطنة تنظر بعيدا • وقد علمت من اول يوم ان ما يدعو اليه محمد هو الحق عدو مصالحها الدنيوية ، فان هي اطاعته ، فقدت عزها وعرشها وكل ما لها من جاه وسلطان • فاعلنت العصيان من اول ساعة ، وقال قائلها ابو لهب : « تبا لك ألهذا جمعتنا ؟ » • كما قال ايضا : « خذوا على يديه قبل ان تجتمع العرب عليه » •

ومكثت امواج الدعوة للحق تنكسر على صخرة الباطل الصماء ، ولا تنال منها الا حصى صغارا •

عندئذ استيقظ الحق الاعزل لنفسه وعوامل ضعفه ، ورأى الله لرسوله ان العمر يذهب سدى مع مخاطبة هذه الصخرة الصماء ، فليتمس سببا غير الكلام لتحطيمها ودفعها عن طريق دعوته ، ولدفع اذى الباطل عن الحق واهله •

فاستيقظي اذن يا عوامل التدبير للقوة والغضب بعد ان طال نومك

وليكن الحق المسلح والسياسة المهاجمة والسباق الديوي بيننا وبين
قريش •

ولتكن حرب لا للغزو ولا لتحطيم حرمت الحياة ، وانما لصيانة
حرمت الحياة ، وحفظ عوامل نموها تقية قوية •

وليكن التدبير والدهاء بجوار البراءة والطهارة والصراحة ، ليكون
لدولة الايمان حارس على كل باب يمكن ان يدخل منه الاعداء
المتربصون ، الذين ان يظهروا عليه لا يرقبوا فيه حرمة ولا ذمة •

وكان ما كان من استجابة الحياة كلها لدعوة الحق المسلح ، والعدل
المجنح ، بعد ان رأهما الناس في منظر عجيب تجتمع عليه انظار عبّاد
الجمال وعبيد العصا •••

فهل للمسلمين ان يفقهوا ان المثل الاعلى الاسلامي ، نزل في ارض
حرة بين قوم احرارا اقوياء ، يتصلون بالطبيعة اتصالا مباشرا ، ليكون
كاملا وراء قواعد العقل الكامل ، وآمال القلب الكامل ، الذي يحس
الحياة في الطبيعة احساسا سليما عميقا رحبا ، فكان مجال الكمال
الاجتماعي والفكري والتعبدي فيه اوسع مجال تنقطع فيه انفاس الحكماء
والاصفياء والشرعيين والمصلحين الاجتماعيين ؟ !

محمّد أحمد الغمراوي

حول عظيمة الرسول

1	1
2	2
3	3
4	4
5	5
6	6
7	7
8	8
9	9
10	10
11	11
12	12
13	13
14	14
15	15
16	16
17	17
18	18
19	19
20	20
21	21
22	22
23	23
24	24
25	25
26	26
27	27
28	28
29	29
30	30
31	31
32	32
33	33
34	34
35	35
36	36
37	37
38	38
39	39
40	40
41	41
42	42
43	43
44	44
45	45
46	46
47	47
48	48
49	49
50	50
51	51
52	52
53	53
54	54
55	55
56	56
57	57
58	58
59	59
60	60
61	61
62	62
63	63
64	64
65	65
66	66
67	67
68	68
69	69
70	70
71	71
72	72
73	73
74	74
75	75
76	76
77	77
78	78
79	79
80	80
81	81
82	82
83	83
84	84
85	85
86	86
87	87
88	88
89	89
90	90
91	91
92	92
93	93
94	94
95	95
96	96
97	97
98	98
99	99
100	100

كتب الكاتبون في عظمة الرسول ما كتبوا ، فلم يبلغوا الا بعض قدره صلى الله عليه وسلم ، وانما يصف كل من ذلك ما يطيق .

فمن المحدثين من قارنه صلى الله عليه وسلم بابطال التاريخ ، وخرج من المقارنة ، بانه صلوات الله عليه ، بطل الابطال . فأخطأ بالمقارنة وبالحكم سواء السبيل ، لانه اوهم بهذه المقارنة وبهذا الحكم ، ان الرسول والبطل من قبيل واحد ، وليس كذلك . ولا يمكن ان يكون كذلك ، فشتان بين بطولة البطل ورسالة الرسول .

فرسالة الرسول صلوات الله عليه ، خرّجت الابطال وربّت عظمة الرجال . بل لم يعرف التاريخ عظمة في ابطاله تضارع او تقارب عظمة اصحاب الرسول رضوان الله عليهم .

واين في التاريخ - غير تاريخ الرسالة - من سما بنفسه عن الدنيا وعن الهوى كما سما اصحاب الرسول ؟

بل اين - الا في تاريخ الاسلام - من دانت له الدنيا بالفعل ، فأعرض عنها وعن زخرفها ، غير معتزل في جبل ولا مترهب في صومعة . بل حاكما بين الناس بالعدل وسائسا اياهم بالحق والحزم ، من غير ان يرزأهم عن دنياهم الا بقدر القوت ؟

ان بطولة ابطال التاريخ تتضاءل اذا قيست ببطولة اصحاب الرسول فكيف يمكن ان يحشر الابطال مع الرسول وبينه وبين اصحابه من البعد ما يبين اصحابه وبينه صلوات الله عليه .

وفي الناس من التمس في العبقرية وجه الشناء على الرسول وتقديره، ولو جعله عبقرى العباقرة ، وما وفى بل ما زاد على ان جعله فردا من نوع متجدد ، وان يكن نوعا نادرا في الناس •

فالذي يشني بالعبقرية كالذي يشني بالبطولة ، كل قد غفل عن ان العبقرين والابطال ، يوجدون في كل زمان • ولا كذلك الانبياء والرسول ، بله اعظم الرسل وخاتمهم سيدنا محمد صلوات الله عليه •

ثم في الناس من تجاوز ذلك فزعم انه يشني على الرسول ، حين ينسب ما اجرى الله على يديه ، او ما اوحاه الله اليه ، كأن ذلك من عمله ، او كأنما بلغه باجتهاده ، ويجعله بذلك اعظم العظماء •

فكأنه صلى الله عليه وسلم ، لا يكون اعظم العظماء ، الا اذا كانت الرسالة من عنده ، او كان وحيها من وحي قلبه وفكره ، كالذي يجري في قلوب اهل الاصلاح والفكر وعلى عقولهم •

وليس هؤلاء ولا اولئك مهما ارتقوا ببالغي ادنى مراتب الرسالة في انفسهم او في اثرها في الناس •

ان كل ثناء على الرسول بما ينقص من رسالته ، جهل بالرسول وانتقاص له • وكل تصوير للرسالة بما يبعتها عن المعنى الالهي الحقيقي المعروف في الاديان ، ويدينها من المعنى الانساني المجازي المعروف في كلام بعض الناس ، هو ستر للرسالة وتعطيل لها يمهد في النهاية للتحلل من الدين •

والمسألة ليست مسألة رغبة او رأي ، ولكن مسألة حقيقة وواقع • فالرسالة بالمعنى الديني ثابتة للنبي صلوات الله عليه ، وليس في هذا شك • وكل ما كان له صلى الله عليه وسلم من عظمة فهو من رسالته

واليها وليس في هذا شك ايضا .

فقد لبث في الناس عمرا من قبلها لم يعرف فيه بعظيم . ولما كانت رسالته صلى الله عليه وسلم ، اعم الرسالات واتمها ، كان هو صلوات الله عليه ، اعظم الرسل اذ اداها ، واكمل البشر . وهذا معنى يضيق عنه ان يقال اعظم العظماء .

لقد لبث صلى الله عليه وسلم قبل الرسالة عمرا في الناس فكانوا يشنون عليه كما يشنون على فاضل فيهم . فلما اكرمه الله بالرسالة ، واكرم الخلق به ، تطور خلقا آخر وانسانا آخر ، وتطورت امته به امة اخرى في الامم ، وتحقق للانسانية مثلها العملي الاعلى فيه وفي امته في عهده .

ان من يعرف معنى رسالة الرسل ولم يلم بطرف كاف من حقيقتها ، لا يرى فوقها لانسان مرتقى ، ولا يخطر له ان وراءها في مجال العظمة وراء .

لكن الالفة حالت بين الناس في هذا العصر الحديث وبين حقيقة تقديرها كما تحول الالفة بينهم وبين حقيقة تقدير نعمة الله عليهم فبي وجود الشمس والقمر والماء والهواء والشجر والسمع والبصر وسائر ما انعم الله عليهم به في الفطرة ومظاهرها وآياتها .

ان هذه الفطرة مظهر قدرة الله سبحانه وعظمته ، وفيض حكمته ورحمته ، فهي منه سبحانه على الناس نعمة ، وهي على وجوده سبحانه دليل ليس وراءه دليل .

فما فيها من سر يبه ، انما مرده اليه سبحانه . وما فيها من عظمة تقهر ، انما مستمدها منه سبحانه .

فعظمة العظيم في الوجود مرجعها الى موجد الوجود . هو اوجد وهو افاض على كل موجود ما افاض من عظمة ، بما اودع فيه من سر ،

وبما فطره عليه من سنن جلت عن ان يغيرها او يبدلها مخلوق في الارض
او في السماء .

فاذا مددت هذا التفكير مدا ينقله من فطرة ما يحيط بالانسان الى
فطرة الانسان ذاته ، وتصورت ان خاطر الفطرة سبحانه ، قد اختص واحدا
من الناس ، بوحى مباشر ورسالة الى البشر يبين لهم بها سبحانه السنن
التي خطر عليها ارواحهم ، وناط بها واتباعها عزتهم وصلاحهم في الدنيا
وسعادتهم في الآخرة .

اذا تصورت اصطفاء خالق الخلق لانسان رسولا على هذه الصورة ،
ايقنت ان ليس يداني مقامه في الناس احد وان عظم ، وادركت عظيم رحمة
الله ، وعظيم نعمته على البشر في ذلك الرسول .

لكن مجرد احاطة الانسان بسنن الله في النفس والروح والاجتماع
على يد رسول ، لا يكفي . فقد يخطيء الناس الفهم والتطبيق .

فكان من حكمة الله ورحمته ، ان جعل رسالة الرسل تشمل شقّي
التبليغ : تشمل التبليغ النظري على لسان الرسول ، والتبليغ العملي
بالحياة العملية للرسول .

فانظر الى النبي او الرسول - اي نبي من الانبياء ، واي رسول من
الرسل - ما اثقل ما حمل وما اعظم .

كلفه الله بتبليغ دين للناس على الوجه الحق ، ثم كلفه كغيره بالعمل
بالدين كما انزل ، لا يحيد عنه ولا يخطيء ، لان الخطأ منه ليس
كخطأ من احد .

فالخطأ العمد منه في القول او العمل كذب على الله ، والخطأ غير
العمد ان وقع منه لا يقر عليه بل ينبهه الله اليه . ويبلغ هو التنبيه الى

الناس حتى تتحقق حكمة الله من النبوة والرسالة ، وحتى لا يلتبس على
الناس باطل بحق في دين الله •

ومن هنا يمكن اتخاذ معايير عدة لتقدير عظمة الانبياء والرسل ،
احدها استنباطي يتعلق بما ينبغي ان يكون عليه النبي او الرسول ، حتى
يصلح لتلقي الوحي من الله سبحانه • والباقي معايير تكاد تكون كمية
في طبيعتها لانها تتعلق بمقدار ما يبلغ الرسول من قول ، ومقدار
ما تقتضيه الرسالة منه من عمل ، ومقدار ما لاقى في سبيل التبليغ من
مشاق واذى ، ومقدار صبره على الاذى في سبيل الله • ومقدار تعدد
نواحي الحياة التي جاء الدين ليشرع لها وليرقى بها ، ولينظمها طبق سنن
الله في الفطرة • ثم هناك معيار ايجابي آخر ، هو ما أصاب الرسول
من نجاح في رسالته كما يبدو من آثارها في الناس •

فهذه معايير عدة صالحة لان تكون حسابية كما ترى ، وتطبيق اي
من هذه المعايير ، يحتاج الى احاطة وجهد وتوفيق من غير شك •

لكننا لسنا في حاجة الى التطبيق التفصيلي لتبيين ، ان محمد بن
عبدالله صلوات الله عليه ، هو اعظم الرسل حقا واكمل البشر •

فرسالته اعم الرسالات وارقاها ، لم تدع ناحية من نواحي الحياة
الانسانية للفرد وللجماعة الا شملتها بتشريع ، ومع ذلك فقد بلغها صلوات
الله عليه في نحو ثلاث وعشرين سنة احسن تبليغ وايينه وأتمه ، بالقول
والعمل •

فالقرآن الكريم هو ما هو ليس للنبي منه حرف ولم يسقط منه
حرفا • والسنة الكريمة هي ما هي تفسر القرآن ، كلام الله تفسير
صدق بالقول والعمل • واثرا الاسلام في الناس في عهد النبي ، وفي

الانسانية من بعده لا يزال يعجب به العاجبون •

ان من العجب العجاب ان ينهض انسان أيا كان بكل ما في الاسلام
من تكاليف وتعاليم وتشريع •

ان الانسانية كلها افرادا وامما ، لم تستطع نهوضا بكل ما كلفها
الاسلام ، بعد الحقبة الاولى التي طبق فيها الاسلام اتم تطبيق في
نصفها الاول في عهد الرسول ، واقرب تطبيق في نصفها الثاني في
عهد الخلافة الراشدة •

فكيف استطاع محمد صلوات الله عليه ، ان ينهض بعبء الاسلام
كله في نفسه وفي الناس ، حتى لم تجد ام المؤمنين عائشة رضي الله
عنها وصفا له الا قولها : « كان عمله ديسة » و « كان خلقه
القرآن » •

أشهد ان محمد بن عبدالله هو رسول الله حقا • اذ كيف يقوى
« على سيرته صلى الله عليه وسلم ، الا رسول ، ورسول محص الله
فطرته ومحضها ، واعدها وامدها ، واستخلصها سبحانه من بين البشرية
كلها طبق سننه في الاستخلاص والاعداد ، حتى اذا آن الاوان وجد
في البشر انسان واحد ، كان هو وحده الصالح لتلقي الرسالة العامة
الكاملة ، وقوي هو على العمل بها ، اصولها وفروعها في نفسه وفي الناس •

هذا هو المقياس الحق لعظمة الرسول الكريم : انه وحده نهض
بما كلفت به الانسانية قاطبة ، فلم تستطعه كلة • وتفرق ما استطاعه
صلى الله عليه وسلم في الناس اجمعين ، ينهضون به جملة ان استطاعوا ،
ويتأسى المتأسى به في ناحية يلتزمها ، فيصبح في الناس مثلا من امثلة
الكمال •

وبعبارة اخرى ، ان سنن الله سبحانه التي يتحقق بها الكمال
الانسائي ، قد تحققت فيه صلوات الله عليه ، فصارت حقيقة واقعة في
الكون ، مجتمعة في فرد ومنتشرة في امة . وصار ذلك الفرد هو المثل
الاعلى للانسانية ، لا يمكن ان يبلغه الناس على مر الزمان وان اجتهدوا
ولكنهم يقربون منه شيئا فشيئا كلما اجتهدوا .



الدكتور عبد الوهاب عزام

من أختلاق القرآن

Vertical dashed line on the right edge of the page.



العفو خلق يسمو بصاحبه عن الانتقام ، ويكبر به عن المجازاة ،
ويتعالى عن ان يلقي الشر بالشر ، ويجزي السيئة بالسيئة *
العفو خلة تؤثر الرحمة على العقاب ، وتحل المودة محل العداوة ،
والوئام محل الخصام * ترى الرجل يؤذي في نفسه او ماله ، فاذا قدر على
خصمه ، استكبر ان ينزل اليه فيأخذه بجريرته ، وآثر ان يغفر ويرحم ،
ووجد في هذا الاحسان من العزة والعظمة والطمأنينة ما لا يجد في
الانتقام ، ولقاء الجناية بجزائها *

وانما العفو عند المقدرة * فليس الذي يصبر على الضيم ، ويخضع
للقوة ، ويستسلم للظلم عفوا ، ولكن خائفا ذليلا ، رحم الله ابا الطيب
المتنبي الذي يقول :

كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجيء اليها اللئام
وقد قال تعالى في وصف المؤمنين : « والذين اذا اصابهم البغي
ينتصرون » * وقال بعض المفسرين بذلك انهم كانوا يكرهون ان يستذلوا
فاذا قدروا عفوا *

وعظماء الناس يؤثرون العفو ما لم يجدوا فيه مفسدة لامر من
امور الدين والدنيا * وقد عرف بذلك كثير من ملوك المسلمين ولا سيما
الخليفة المأمون العباسي *

ورويت في العفو عند المقدرة اخبار تنبى عما يملك قلب الرجل
العظيم ، من الحلم والعفو في الخطوب الجسام * كما اثر من استعطف
المؤمنين في مقام العقاب ما يذهب بالحفيظة ويوجب المغفرة *
كانوا يرون العفو وسيلة الى استصلاح النفوس وازالة الاحقاد ،

واحلال الوثام محل الخصام فيؤثرونه على الانتقام •

قال رجل لسليمان بن عبدالمك : « ان القدرة تذهب الحفيظة ،
وقد جل قدرك عن العقاب ونحن مقرون بالذنب • فان تعف فانت اهل
للعفو ، وان تعاقب فيما كان منا » •

وقال آخر لبعض الامراء : « اسألك بالذي انت بين يديه اذل
مني بين يديك ، وهو على عقابك اقدر منك على عقابي ، الا نظرت في
امري نظر من برئي احب اليه من سقمي ، وبراءتي احب اليه من جرمي » •
وقال بعضهم : « ان عاقبت جازيت ، وان عفوت احسنت ، والعنصر
اقرب للتقوى •

والقرآن الكريم يحث على هذا الخاق الكريم ويهدي الناس الى
هذه الخلة التي تلقى جهل الجاهل بحلم العفو ، وشر المسيء بخير المحسن •
سمى الله تعالى نفسه العفو ، قال : « فأولئك عسى الله ان يعفو
عنهم وكان الله عفواً غفورا » •
وفي آية أخرى :

« وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما
تفعلون » •

« ان تبدوا خيرا او تحفوه او تعفوا عن سوء ، فان الله كان عفوا
قديرا » •

وقد امر الله سبحانه الناس بالعفو فقال للرسول صلوات الله عليه :
« خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » •
ويقول تعالى :

« فيما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لا تفضوا

من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر » •

ونهى سبحانه ، ان يعاقب المسيء بحرمانه من الصدقة والبر فقال :

« ولا يأتل اولو الفضل منكم والسعة ان يؤتوا اولي القربى
والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ، الا تحبون ان
يعفو الله لكم ، والله غفور رحيم » •

واجاز القرآن المجازاة بالعدل ولكن جعل العفو اقرب للخير فقال :

« وان تعفوا اقرب للتقوى » •

كما قال في وصف المؤمنين :

« والذين اذا اصابهم البغي هم ينتصرون، وجزاء سيئة سيئة مثلها، فمن
عفا واصلح فأجره على الله ، انه لا يحب الظالمين • ولمن انتصر بعد ظلمه
فأولئك ما عليهم من سبيل • انما السبيل على الذين يظلمون الناس
ويبغون في الارض بغير الحق اولئك لهم عذاب اليم • ولمن صبر وغفر ان
ذلك لمن عزم الامور » •

وقد اشاد القرآن بالعافين عن الناس وبين عظم جزائهم في قوله

تعالى :

« وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض
اعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ
والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » •

وكانت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم عملا بامر القرآن وتأديبا

بآدابه • قال رسول الله :

« امرني ربي ان اصل من قطعني واعفو عن ظلمي »

فانظر اليه يوم فتح مكة والجزيرة العربية في سلطانه ، وصناديد

قريش طوع امره ، وقد لقي ما لقي من المشركين منهم ، اكثر من عشرين
عاما ، وفي كل بقعة من مكة والمدينة ، ذكرى ما لقي من ظلم وعدوان
واذى ، وفي كل جماعة من قريش رجال قد قسوا عليه وعلى اصحابه
ونالوا منه ومن دينه ، وصدوا عن دعوته جهد طاقتهم •

فما مد اليهم يوم الفتح والقدرة يدا بعقاب ، ولا جازاهم بما فعلوا
ولا باقل مما فعلوا ، بل عفا عنهم عفوا عاما شاملا • ونال اكبر اعدائه
اعظم نصيب من عفوه ورحمته • قال عليه الصلاة والسلام :

« يا معشر قريش ما تظنون اني فاعل بكم ؟ »

قالوا : خيرا • اخ كريم وابن اخ كريم •

قال عليه الصلاة والسلام : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » •

وفر صفوان بن امية اعدى اعدائه خوفا من ذنبه ويأسا من العفو ،
فأرسل وراءه النبي من يؤمنه واعطاه عمامته امارة الامان •

فلما طلب منه ان يجعل له الخيار شهرين ليدخل فيما دخل فيه
الناس او يهاجر قال : انت بالخيار اربعة اشهر •

ولما اجتمعت عليه قبائل هوازن بعد الفتح وأرادت ان تؤلب عليه
القبائل ، وترد فتح مكة هزيمة ، خرج الرسول لحربها وكانت واقعة حنين
التي لقي فيها المسلمون ما لقوا من الهزيمة اول الامر •

ثم وثب الرسول وانجاز اليه انجاد اصحابه ، حتى انزل الله سكينته
ونصره • فلما ظفر بالقوم وقد عظمت جنايتهم ، جزاهم بالاساءة احسانا
وبالذنب عفوا • يقول الطبري :

اتى وفد هوازن رسول الله صلى عليه وسلم وهو بالجوانة وقد
اسلموا فقالوا يا رسول الله انما اهل وعشيرة ، وقد اصابنا من البلاء ما

لا يخفى عليك ، فامتحن علينا من الله عليك •

فقام رجل من هوازن ••• فقال : يا رسول الله انما في الخطائر عماتك
وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك (يعني انهم قوم حليلة مرضعة
الرسول) :

أمنن علينا رسول الله في كرم فانك المرء نرجوه ومنتظر
فقال رسول الله : « ابناؤكم ونسأؤكم احب اليكم ام اموالكم ؟ »
فقالوا : يا رسول الله ، خيرتنا بين احسابنا واموالنا ، بل ترد علينا
نساءنا وابناءنا ، فهم احب اليينا •

فقال عليه الصلاة والسلام : اما ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهو
لكم • فاذا انا صليت بالناس فقولوا انا نستشفع برسول الله الى المسلمين ،
وبالمسلمين الى رسول الله في ابائنا ونسائنا ، فسأعطيكم عند ذلك
واسأل لكم •

فلما صلى عليه الصلاة والسلام بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذي
امرهم به •

فقال رسول الله : اما ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهو لكم •
وقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله •
وقالت الانصار : وما كان لنا فهو لرسول الله •

وقال الرسول : اما من تمسك بحقه من هذا السبي منكم فله بكل
انسان ست فرائض من اول شيء نصيبه • فردوا الى الناس ابناءهم
ونساءهم •

ذلكم مثل من امثال تبين عن خلق رسول الله ، وهو الخلق العظيم
الذي اوجاه اليه القرآن ، وانما تتجلى عظمة العظيم بالعفو حين المقدرة ،

• والترفع عن الاقتصاص بالذنوب •

• وذلك تأديب القرآن امة القرآن ، وتعليم رسول الله عباد الله •
• وانما يريد القرآن ان يكون المسلمون اكبر من ان يذلوا اذا غلبوا ،
• واعظم من ان ينتقموا اذا قدروا •

يوسف الدجوي

من أخلاق الإسلام



الرحمة من اشرف الخصال واكرم الاخلاق ، وان الله لا يحب شيئا
مثلما يجب الرحمة والتواضع ، ويكره شيئا مثل ما يكره القسوة والكبرياء .

وقد ورد في الحديث الصحيح : « ارحموا من في الارض يرحمكم
من في السماء » * وذكر من للعاقل ها هنا لتغليب الاشرف على غيره .
واياك ان تفهم من ذكرها انك لست مأمورا الا برحمة النوع الانساني
فقط ، فانك مأمور بالرحمة لكل ذي روح .

ولقد قال صلى الله عليه وسلم : « في كبد كل رطبة صدقة » . واذا
كانت امرأة قد دخلت النار من اجل هرة حبستها كما في الحديث الصحيح ،
فلا غرو ان تدخل الجنة من اجل هرة ترحمها .

وقد ورد « ان الله رحيم ، وانما يرحم من عباده الرحماء » . ويقول
الله سبحانه في الحديث القدسي : « سبقت رحمتي غضبي » .

وليس ذلك الحنان الذي تراه في قلوب الآباء والامهات في افراد
النوع الانساني وسائر انواع الحيوان مما يسوقهم سوقا اضطراريا الى
تعهد الولد ومراعاته في كل ما يجب له ، ولا تلك الشفقة التي تجدها من
نفسك اذا رأيت مظلوما ضعيفا او فقيرا بائسا ، الا اثرا من آثار تلك
الرحمة الالهية .

ومواساة الاخوان والجيران والشفقة على الفقراء والضعفاء من افضل
الاعمال التي حث عليها الدين وندبت اليها الشريعة . وكل ذلك من آثار
الرحمة الالهية ، التي قامت بها السموات والارض .

ولا محل هنا لتفصيل رحمته تعالى بك وفضله عليك بجري البحار

وتفجير الانهار ، وتيسير الانوار وخلق الليل والنهار ، وانبات النبات
وبقية الآيات ، وانواع النعم المتواترات •

وقد قال تعالى : « فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الارض
بعد موتها » الخ ••

وبالجمله ففبك من الانسانية على قدر ما فيك من الرحمة ، وعلى
قدر ما فيك من القسوة ، يكون بعدك من الله وانسلاخك من الانسانية ،
فانك لا تتكامل الا اذا انفعلت نفسك بالكمالات ومكارم الاخلاق المرة بعد
المرة ، وعلى قدر لين قلبك وسرعة تأثرك يكون قبولك لتلك الكمالات •
واما ذلك القلب القاسي الذي لا ينفعل ولا يتأثر ، فانه بعيد جدا من الكمال ،
حيث كان غير مستعد للانفعال ولا قابل للنقش فيه •

وان من القلوب قلوبا كالحجارة او اشد قسوة وان من الحجارة لما
تنفجر منه الانهار ، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء • ومن كان بهذه
الصفة فهو شقي في الدنيا والآخرة ، ممقوت لدى الله والناس •

وقد قرر الفلاسفة ان الانسان قد ينحط الى دركات هي اسفل من كل
المراتب التي فيها انواع الحيوان واذا لا يكون انسانا في صورته •

وقد قال بعض الحكماء : ان من الناس من تفسد انسانيته فيصبح
غير انسان • وقد اشار سبحانه الى ذلك بقوله :

« لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين الا
الذين آمنوا وعملوا الصالحات » •

ويقول جل شأنه :

« والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات
وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » •

ولا يمكنك ان تصل الى درجة الكمال الا اذا لم تكن من ذوي
القلوب القاسية والنفوس الجامحة *

وإذا لو اتصف الناس بالرحمة لكانوا كاملين في انسانيتهم ، فلم
يفعلوا فعل الوحوش الضارية باخوانهم وبني نوعهم *

لو تمت الرحمة في النفوس لما انتهت الامم القوية الامم الضعيفة ،
ولما فعلت بهم ما لا تفعله اقوى الحيوانات بأضعفها ، على ان الحيوان لا
يفترس ابناء نوعه مهما كانت وحشيته وشرهته *

ولو تمت الرحمة في الاغنياء لما مقتهم الفقراء ، ولو تمت الرحمة في
القضاة ، لما تأخرت القضايا السنين الطوال * ولا لحق اربابها شديد
النكال وعظيم الوبال *

ولو تمت فيك الرحمة لدعا لك جيرانك واثني عليك اخوانك * ولو
تمت الرحمة فيك لبذلت النصح للعامة والخاصة اخلاصا لهم واشفاقا عليهم
(والدين النصيحة) *

ولو تمت فيك الرحمة لاشفقت على القريب والبعيد ، ورحمت المبتي
والمعافى والانسان وغير الانسان *

بل تقول : لو تمت فيك الرحمة لكنت من المرحومين الذين يشفقون
على انفسهم فلا يورطونها في الهلاك ولا يجلبون لها اعظم الآفات ،
ويحرمونها من افضل انواع السعادات *

واجمال القول انه اذا استقام هذا الاصل للانسان في الدين ، استقام
له سائر ففاز بخير الدنيا والآخرة * فأزل من نفسك القسوة وكن رفيق
النفواد * ولا تكن من غلاظ الاكباد فالراحمون يرحمهم الرحمن *

وفي الحديث الشريف : « لا تنزع الرحمة الا من شقي » * وعن

ابي هريرة قال : قبل الرسول صلى الله عليه وسلم الحسن بن علي رضي الله
عنهما ، وعنده الاقرع بن حابس ، فقال الاقرع : ان لي عشرة من الولد
ما قبلت احدا منهم ، فنظر اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال :

« من لا يرحم لا يرحم » *

وعن ابي هريرة ايضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها
فشرب ، ثم خرج ، واذا بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل :
لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ مني ، فنزل البئر فملا
خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى فغفر
له . قالوا يا رسول الله وان لنا في البهائم اجرا ؟ قال : في كل
كبد رطبة اجر » *

وفي حديث نبوي آخر : « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم
تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش (١) الارض » *

وفي الآية القرآنية الكريمة « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » اي
لا تطبقوا حصرها ، ولو اجمالا فانها غير متناهية . كيف لا وما من
فرد من افراد الناس وان كان في اقصى مراتب الفقر والافلاس ، ممنوا
باصناف البلايا مبتلى بأنواع الرزايا ، فهو بحث لو تأملته الفيتة منقلبا في
نعم لا تحد ، ومنن لا تحصى . *

وان كنت في ريب من ذلك فقددر انه ملك ملك اقطار العالم
ودانت له كافة الامم ، واذعنت اطاعته السراة ، وخضعت لهيبته رقاب القساة
وفاز بكل مرام ونال كل منال ، وحاز جميع ما في الدنيا من اصناف

(١) خشاش الارض : هوامها وحشراتهما .

الاموال ، من غير ند يزاحمه ، ولا شريك يساهمه • بل قدر ان جميع ما فيها من حجر ومدبر يواقيت غالية ، ونفائس درر •

قدر انه قد وقع من فقد مشروب او مطعوم ، في حالة بلغت منها ، نفسه الحلقوم فهل يشتري وهو في تلك الحال بجميع ما له من الملك والمال لقمة تنجيه او شربة ترويه ، ام يختار الهلاك فتذهب الاموال والاملاك بغير بدل يبقى عليه ، ولا نفع يعود اليه ؟

كلا ، بل يبذل لذلك كل ما تحويه اليدان كائنا ما كان ، وليس في صفقته شائبة الخسران • فاذا تلك اللقمة والشربة خير مما في الدنيا بالف رتبة ، مع انهما في طرف التمام ، ينالهما متى شاء من الليالي والايام •

او قدر انه قد احتبس عليه النفس ولا دخل منه ولا خرج ، والحين قد حان واتاه الموت • اما يعطي ذلك كله بمقابلة نفس واحد ؟

فاذا هو خير من اموال الدنيا بجملتها ومطالبها برمتها • مع انه قد ابيح له كل آن من آتات الليل والنهار •

وان رمت العثور على حقيقة الحق ، والوقوف على ما جل من السر ، فاعلم ان الانسان بمقتضى حقيقته الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجود وما يتبعه من الكمالات اللائقة والملكات الرائعة بحيث لو انقطع ما بينه وبين العناية الالهية من العلاقة لما استقر له القرار ، ولا اطمانت به الدار ، الا في مضمورة العدم ومهاوى الهلاك •

لكن يفيض عليه من الجنب الاقدس تعالى شأنه ، في كل زمان مضى ، من انواع الفيوض المتعلقة بذاته ووجوده وسائر صفاته الروحانية والنفسانية والجسمانية ، ما لا يحيط به نطاق التعبير ، ولا يعلم به الا

العلاج بالخبير •

وتوضيحه انه كما لا يستحق الوجود ابتداء ، لا يسحقه بقاء ، وانما ذلك من جناب المبدأ الاول عز وجل •

فسبحانك سبحانك اللهم ما اعظم سلطانك ، لا تلاحظك العيون بانظارها ولا تطالعك العقول بافكارها ، شأنك لا يضاهاى واحسانك لا يتناهى • نسألك الهداية الى مناهج معرفتك ، والتوفيق لاداء حقوق نعمتك ، لا نحصي ثناء عليك ، لا اله الا انت ، نستغفرك وتتوب اليك •

أبو بكر ذكري

مكارم الأخلاق
بين الأدب والفلسفة



فضيلة العدالة

العدالة بمعناها العام ، كالعدل والاعتدال ، كلمة معناها : الاستقامة والاستواء والتساوي والعدل والتعديل : التسوية والتقديم •

والى هذا المعنى ترجع كلمة (العدالة) التي يراد بها الملكة النفسية المحدودة عند الاخلاقيين من امهات الفضائل الانسانية • والتناسب بين هذا المعنى الخاص المتعارف عند الاخلاقيين « وبين المعنى اللغوي السابق واضح بين ، لان الاعتدال النفسي الذي سماه الاخلاقيون عدالة وعدلا هو ايضا صورة من الاستقامة والاستواء والتساوي • وحسبنا ان نوضح هذا بمظهر القاضي المتصف بالعدالة ، اذ نرى مجلسه صورة من التعادل والانسجام يسوي فيه بين الخصمين في النظرة والاشارة وشتى ضروب المعاملة ، لا يتحامل على أحد الا للحق وفي سبيل الحق ، فيبدو مجلسه صورة متناسقة منسجمة ترتاح لها كل نفس شريفة فاضلة - وفي مقابل العدالة والعدل والاعتدال - نجد الظلم والجور والجنف او ما هو بهذا المعنى •

وهذه الفضيلة عند الاخلاقيين نوعان : عدالة كلية - وعدالة جزئية خاصة تنشأ عن سابقتها ، وهم يعنون بالعدالة الكلية اعتدال الملكات الانسانية في مجموعها ما بين عقلية - وغضبية - وشهوية • بحيث لا يطغى بعضها على بعض • فالقوة العاقلة تسوس القوتين الاخرتين وتمسك بزمامهما وتصرف امرهما بقدر ، فلا تدع لقوة الغضب ان تطغى وتثور لاتفه الاسباب او لغير سبب ، فيغدو صاحبها كلبا عقورا وسبعا ضاريا

يهاجم غيره لسبب ولغير سبب ، حتى يبلغ من العدوان غايته او يلقى حتفه - ولا تدع كذلك لقوة الشهوة ان تثور وتطغى وتتخطى القيود والحدود ، فيصبح صاحبها بهيمة من البهم السائبة يتلوث بكل وضر ، ويتبرغ في كل دنس ، ويبلغ في كل حماة • وبعض الاخلاقيين يسمي النفس التي تنحرف هذا لانحراف بالنفس الخنزيرية ، نسبة الى الخنزير الذي هو اقذر واشره ما عرف من انواع الحيوان •

كذلك لا تسمح القوة العاقلة لنفسها ، بأن تطغى على هاتين القوتين ، فتعطلهما عما اوجدتها من اجله في الطبيعة الانسانية ، لان طغيان قوة العقل وافراطها في قمع القوة الشهوية ينحرف بالمرء الى الرهينة والتأبل الذي هو امانة للرغبات الجنسية وافراط في النقشف والحرمان • وطغيانها على قوة الغضب والافراط في كبجها ، ينحرف بالمرء الى الجبانة والانكماش والمهانة ، وفي هذا وذاك ما ينحرف بالشخصية الانسانية عن سنن العدالة ، وينأى بها عن طريق المثل العليا •

اما الحد الوسط من الانسجام والتناسب والتعادل بين هذه الملكات ، فهو ان تعمل كل قوة من هاتيك القوى الثلاث في حدود ما خلقت له ، فلا يترك العقل الزمام للغضب والشهوة ولا يبالغ في كبجها الى حد التعطيل ، ولا تقصر هي في الاستزادة من العلم والحكمة ، وبذا تبلغ الشخصية الانسانية كمال وجودها وتتحقق لها فضيلة العدالة الكبرى التي هي كنز الحكمة واصل الفضائل السامية وسلم الوصول الى السعادة •

ذاك هو مجمل ما شرعته عبقرية افلاطون واستاذه سقراط زعيمى تعاليم الحكمة اليونانية في القرنين الخامس والرابع ق.م • ليكون منارة

هدى للانسانية في مهبه الحياة الطامس الاعلام •

وفوق ما تقدم ، حاول افلاطون في كتابيه «الجمهورية» و«القوانين» تحقيق هذا النوع من العدالة الكلية في بناء المجتمع المثالي الذي حاول بشتى النظريات ان يضع اسسه وقواعده • ومجمل وصاياه في ذلك ان توضع الطبقة الحاكمة في مكانة القوة العاقلة - وطبقة الجند في مكانة القوة الغضبية - والطبقة العاملة المنتجة مكان قوة الشهوة ، وان يسود بين هذه الطبقات الثلاث الكبرى من التوازن والتعادل والانسجام ما عرفناه سابقا من التوازن بين هذه الملكات الانسانية الثلاث ، فلا تجور الطبقة بالعسف والظلم على الطبقتين الاخرين ولا تترك الزمام للجند يعتدون بسبب وبغير سبب ، بل غضبا للحق وللشرف فحسب ، ولا تجور الطبقات المنتجة : من زراع وتجار وصناع بترك الزمام لها تحصل اسباب الحياة من حلها وحرامها •

فاذا تيسر لمجتمع ان يتناسق مثل هذا التناسق ويتعادل ، فانه سيحقق لنفسه اعظم ما يمكن من السعادة • وكل انحراف عن هذا التعادل يكون سببا لشقاء المجتمع واضطرابه وتدهوره ، وما نظن المقام يتسع هنا لبيان مدى الحفاوة التي تلقيت بها هذه التعاليم على مر اربعة وعشرين قرنا من يوم مولدها ، حتى ايامنا هذه التي ما تزال ترمقها بالاجلال والاعجاب وقديما شاد عليها الاخلاقيون الاسلاميون ابداع التعاليم الاخلاقية •

واما العدالة الجزئية الخاصة : فهي التي تعرف عن الاخلاقيين والسياسيين باسم «العدل» تلك الكلمة التي يراد بها الانصاف فسي توزيع الحقوق بين الافراد والجماعات • وهذا هو العدل السياسي الذي يظهر لنا على الاخص في تصرفات الحكام والمسؤولين من موظفي الدولة •

وهذه الفضيلة الجزئية العلمية هي التي اثارت اهتمام ارسطو معلم
الفلسفة الاول ، ولها كرس جانبا مهما من صفحات كتابه الخالد « علم
الاخلاق الى نيقوماخوس » وأثنى على المتصفين بها من المسؤولين عن
الحقوق افرادا وجماعات ، وخص بالاعجاب تلك الصورة السامية التي
تبدو في سلوك من ينصفون الناس من أنفسهم فوق انصافهم الاغيار
بعضهم من بعض • وما أبدع قول ارسطو في تمجيد العدل :
« فما طلوع الشمس ولا غروبها بأحق منه بالاعجاب » •

ولعل أرسطو الفيلسوف العالم المشهور بتدقيقه العلمي الجاف
الذي لا يقيم للعواطف وزنا - لم يتمالك نفسه أمام جلال العدل ان
ينقلب شاعرا يبدي اعجابه بالعدل بهذا التعبير البديع الرائع •

وكذلك لعل الذين لم يوهبوا رقة الذوق الادبي ودقته ولطفه لن
ينتبهوا الى دقة اختيار أرسطو لهذه العبارة فيقولوا : وأي اعجاب في
طلوع الشمس وغروبها ؟ ان الشمس لتطلع كل يوم على الملايين من
الناس دون ان تثير فيهم شيئا من الاعجاب •• ولو علموا ان طلوع
الشمس وغروبها كل يوم على هذه الدقة التي عرفت بها في مواعيدها
لتهب للعالم سر ما أودع فيها من أسباب الحياة ، بلا تمييز بين كائن
وكائن ، انما هو ضرب من العدل معدوم النظر - لعذروا ارسطو في
تعبيره ، ولعلموا انه هو أيضا في اعجابه بالعدل الى هذا الحد كان آية
في العدل •

وقفنا لله أفرادا وجماعات الى العلم بالعدل ومكائنه والتخلي به
وهذا سوا السبيل •

- ٢ -

وفضيلة العدالة صفة انسانية تتفاضل وتتفاوت تبعاً لاسبابها

ومقوماتها في النفس الانسانية .

وهذه الاسباب والمقومات ، اما ان تكون امورا كسبية ارادية ، كالتعاليم والتهذيب في شتى ضروبه وأشكاله ، واما ان تكون امورا جبلية وهبات لا دخل للكسب فيها ، كرقعة الطباع ، ودمائة الخلق. النبي تظهر احيانا مبكرة في الطفولة الانسانية ، اما بعامل الوراثة ، او بعوامل اخرى علمها عند مبدعها وخالقها تعالى . ولا بد لكمال فضيلة العدالة من تضافر هذه الاسباب والمقومات جميعا ، لاجراج شخصية انسانية ، كاملة العلم، موفورة الذكاء والانتباه، مهذبة الغرائز تدرك تمام الادراك ، الغاية التي خلقت لها والطريق الموصل اليها ، وتثق كل الثقة في المثل العليا ومراميتها السامية ، وتفرق بين مطالب الانانية الفردية ، ومبادئ الواجبات الاجتماعية بحدود واضحة المعالم ، وترتبط مع مجتمعها برباط وثيق من « الشعور المتبادل » أو ما يسميه علماء النفس وعلماء الاجتماع : « المشاركة الوجدانية » عالمة تمام العلم بما لها على المجتمع ، وما للمجتمع عليها من حقوق وواجبات ، وتشعر شعورا واضحا مطردا بما للانسانية من قيم ذاتية .

أما عندما تنعدم تلك الاسباب والمقومات كلها او بعضها ، فان صفة العدالة تنعدم كذلك من الشخصية الانسانية ، فتتزل من درك الى درك ، حتى تنحط الى مستوى البهيمية والوحشية ، شأن الهمج الطغاة ، الذين لا يعيشون على اديم الارض ، الا ليمثلوا تنازع البقاء بأخس الوسائل وأقبح المظاهر . وهذه الحال هي ما يسميها بعض الكتاب : « شريعة الغاب » . وعندني ان شريعة الغاب تظلم ، اذ يشبه بها ذلك النوع البشع من السلوك الانساني ، ان حيوان الغاب لا يعدو غالبا الا بدافع من الحاجة الملحة ، والجوع المستعر ، على حين ان الظالمين من

بني البشر يندفعون الى ذلك بعامل بطر الغنى وأشر القسوة « ان الانسان ليغظى ، ان رآه استغنى » •

وان الذين تستهويهم شياطين الجهل والغرور والادلال بالقوة والجاه والوصول ليحسبون انفسهم دائما ، خلقا آخر لا يمتنون الى العالم المحيط بهم بصلة ولا يربطهم به سبب ولا نسب • ولو رجع اولئك الاغرار الى طبيعتهم العاقلة وأجادوا التبصر والفهم ، لادركوا تماما أنهم مرضى الجهل والهوس والكبرياء وحب الظهور والتعالي الكاذب ، الذي يخيل اليهم ان الانسانية كلها تحت مواطئ اقدمهم ، وعلى أشلائها يجب أن تحتك هاماتهم بنجوم السماء ، شأن فرعون اذ قال : « يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات ، فأطلع الى اله موسى ، واني لاذنه كاذبا • وكذلك زين لفرعون سوء عمله ••• »

ولو أحسنوا التبصر اكثر فاكثر ، لعلموا ان هذا الشذوذ الخلقي الغبي الوخيم الاعمى ليس الا مرضا لا يخفى على ذوي البصائر من مخالطيتهم ومواطنيتهم ، وان من بين الانظار المصوبة اليهم انظار ساخرين وضاحكين ومستهزئين ، بينما يظن البلهاء انها جميعا انظار مكبرين ومعجبين •

ولو أمعنوا في التأمل لعلموا انهم لو اقتطعوا وافردوا افراد البعير المبعد عن اولئك الذين يحتقرونهم ، ويمدون على قدسية حقوقهم من اخوانهم ومواطنيتهم ، لماتوا هزالا وكانوا احقر من قلامة ظفر •• نعم •• لو أمعنوا في التأمل وادركوا ذلك لهانت عليهم انفسهم وقدروها حق قدرها ووقر في نفوسهم انهم كبقية الخلق ، من طين وماء ، وان عليهم للناس حقوقا بقدر ما لهم من واجبات ، وأن العدالة خير ميزان من ينصفهم من الناس وينصف الناس منهم ، فيعيشوا سعداء ويعيش بهم

مجتمعهم سعيدا قرير العين ، تسعهم جميعا رحمة الله وتفيض عليهم نعمه
ظاهرة وباطنة .

وليست فضيلة العدالة - لسوء حظ الانسانية - بالفضيلة التي
يسهل الحصول عليها ، ويتأتى الوصول اليها بأيسر الاسباب وأهون
الكلف . انها ، على الضد من ذلك ، وعرة المرتقى عالية الذروة .
هي فضيلة الحكماء الحقيقيين ، وصفة الامراء النابهين ، وتاج الملوك
الموفقين ، وحرية الرؤساء البارزين ، وسلاح الساسة الناجحين . ولا بد
للحصول عليها من منبت شريف ونسب زكي وورثة نقية من الشوائب ،
وهمة نزاعة الى المعالي . أما الظلم فما ايسره واكثره . انه كأشواك
اودية العوسج ، يكاد يسد على الانسانية مسالكها ، وينغص
عيشها ويقضي مضجعا .

أما أثر العدالة في الجمعيات الانسانية ، فان التاريخ يرينا بلاء
أعيننا أنها أم العمران ، ودعامة النجاح وسبيل التقدم في مدارج
الحضارة ، وأوثق وسيلة لبلوغ الامم أوج العظمة والمجد الباذخ ، كما
أن الظلم كان ولا يزال سبب الفشل والخراب والانحطاط والضعف
والتدهور الى حضيض الهون .

ولقد ضرب الله سبحانه « تعالى » لنا في كتابه الكريم ، أمثال أمم
بادت وأتقرضت بعامل الظلم والعدوان وتناسي فضيلة العدالة السامية
« لقد كان لسبأ في مسكنهم آية : جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من
رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا ،
فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وائل
وشيء من سدر قليل ، ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازي الا الكفور ،
وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدرنا فيها

السير، سيروا فيها ليالي واياما آمنين ، فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا ،
وظلموا أنفسهم ، فجعلناهم احاديث ، ومزقتهم كل ممزق ، ان فتي ذلك
لآيات لكل صبار شكور » •

كذلك ادال الله من دول بلغت اوج المجد ، ثم فسدت ملوية
أهلها فتظالموا وتقاطعوا وتقاسموا على أنفسهم كالقيصرة والاكاسرة
الذين محا الله ملكهم ، وخلص العالم من طغيانهم ، اذ ارسل عليهم جنود
عدله لسواء الاسلام ، فأورثهم ارضهم وديارهم واموالهم ، وكانت عدالة
الاسلام خير وسيلة لفض جموعهم وفتح حصونهم ، وخير ملجأ ينضوي
اليه المظلومون من عامتهم وخاصتهم ، والظلم مرتعه وبيئ وخيم لا ينجي
ولا يذر • كانت العدالة اساس التعليم المحمدية السامية ، وربساط
مجتمعها الوثيق ، يقوم فيه الرسول الكريم باعظم واسمى قدوة عرفت
لمعلم اخلاق على مر القرون •

كان يعدل بين الاسود والابيض والاحمر والاصفر « لا فضل
لعربي على عجمي الا بالتقوى » رسالة تضمن الحق لشكل من تثبت له
صفة الانسانية • لا تفاخر ولا تطاول ولا تعاضم الا بالعمل الصالح
المتواضع والخلق السامي الركين ، سماحة وبصير وعفو ومياسرة وهدى
وارشاد لا ظلم ولا انتقام ولا طغيان •

وكان خليفته الاول أبو بكر رضى الله عنه الناسج على منواله ،
والسائر على هديه ، والذي يرى القوي ضعيفا حتى يأخذ الحق منه ،
والضعيف قويا حتى يأخذ الحق له ، والذي يرى نفسه مسئولاً حتى عن
عدوان ذئب على شاة لاحد الرعية ، ولو كان باقصى مملكة الاسلام
الواسعة • وهل بعد هذا دفعة في الشعور بالمسئولية واستشعار العدالة ؟

أما عمر بن الخطاب عليه رضوان ربه ، فكان ابعد الخلفاء في ذلك

غورا واخبلدهم سيرة • إن صحائف تأريخه الناصع تروي لنا انه ما كان يسمح لنفسه يوما ان تستشعر لها ميزة على احد من رعايله • كان يسمع اللوم والتفريع عن كل من ينقده نقدا عادلا لا فرق بين رجل وامرأة ولا بين حر وعبد، ولا بين كبير وصغير •

وحسبنا عدالة بحاكم كان يسهر الليل جواب آفاق، والناس نيام، ليستوضح احوال الرعية، ويلمس بنفسه من وراء الحوائط آلام البائسين، ويقف على خلات المعوزين، غير منتظر منهم ولا من اعوانه ايصالها اليه في مجلس عدله •

لان من الناس من يقنع بؤسه، ويستر جرحه النزاف تصونا وضنا بالكرامة، ومن الاعوان مهما اخلصوا من لا يشعر بشئ ما يشعر هو به من عظم الوزر وجلال المسؤولية، فمن ذا الذي يستطيع ان يسيط له اللثام عن كل شاردة وواردة من آلام رعيته، الا ان تكون نفسه الحساسة بمواضع الآلام؟ ولرب بؤس في الحياة مقنع أربى على بؤس بغير قناع •• وبهذا كان اكثر من أب حذب على أبناء يعدون بالملايين •

ومن ابدع ما يروى عن عدله الدقيق: ان بعض رعاياه، كانوا ينزلون بداره ضيوفا، فيصيبون من طعامه الذي يقدم له ما يجعلهم يأسفون على حظهم، لفوات ما كانوا يقدرون انهم سينالونه على مائدة خليفة واسع السلطان من الطيبات •

ولكنهم لو علموا ان رجل العدالة رجل قلب لا رجل بطن، وان له من لذة الايمان بالعدل ما تنهه معه اطياب المطاعم والمشارب، وجميع لذات الدنيا، لما عجبوا ولا دهشوا •

ولقد كان اقرب خطم الرعية من يده القوية خطام اهله وعشيرته.

الادنين ، يتخذ منهم هدفا لمرمى العدالة ، يراه الناس ، فيأتسون ويؤمنون ويعملون ويخلصون .

وأية ثقة بعد الثقة بحاكم يقدم عند الشدائد نفسه واهله ، ويقدم عند المغانم سواهم . ليتيم حجة العدالة ناصعة سافرة كالشمس الطلقة رآد الضحى ؟ ومن يرد عجائب عدله فليرجع الى صفحات التاريخ فانها عجب الدهر .

ومن بديع مآثور التاريخ في هذا المعنى ما روي من أن عمر بن عبد العزيز الخليفة الاموي العادل ، كان يقرر على نفسه حتى لا يمس درهما من مال الدولة بغير حقه وراق له يوما أن يستخير خادمه بعض ما لا يعلم من أموال الرعية فقال له : « ماذا يقول الناس فينا بعد أن صار هذا الامر اليانا ؟ » فأجابه الخادم في حدة وغيظ : « وماذا يقولون ؟ والله لقد كنا قبل هذه الخلافة اسعد حالا منا بعدها » .

وهنا بدا للخليفة الصالح ان خادمه يكابد من العيش مالا قبل له بمثله ، فأحسن اليه وسرحه سراحا جميلا ، وقال له : « أنت حر مطلق وسأبقى أنا فيها حتى يكتب لي الله عنها مصرفا » . وقد بقي فيها ما شاء الله ان يبقى دون ان يجيد عن سبيله القويم ، حتى وافاه اجله رضي الله عنه وأرضاه .

ومن الطرائف في تحري العدل ما روي : أن المأمون الخليفة العباسي كان يوما يماشي قاضيه على طريق في بستانه ، وكان القاضي يستتره عن الشمس بظله ، فلما ارادا الرجوع ، حاول القاضي ان يظل ناحية الشمس ليبقى ستارا له ، فأبى المأمون الا ان يكون ستارا للقاضي واحدة بواحدة . فقال له القاضي : « يا أمير المؤمنين لو استطعت ان

أقبيك بنفسني من حر النار لفلعل « فقل المأمون رحمه الله : « نعم ولكن ليس ذلك من كرم الصلابة » .

وبعد ، فهل يحسن بعامل يحترم نفسه وانسانيته ان يجهل قيمة العدالة ، وما لها من آثار صلابة في سعادة الافراد والمجتمعات ؟ .

العدالة فضيلة أساسية تقتضيها جميع المعاملات الاجتماعية ، تقتضيها علاقة المرء بأهله ، وعلاقة الجار بجاره ، والقريب بدوي قرابته ، والرئيس بمرؤوسيه ، والحاكم بمحكومييه ، وكل مواطن مع مواطنيه ، حتى يكون السبيل اهدي والطريق اقوم . نسأله تعالى الهداية .

— ٣ —

والآن وقد عرضنا تلك الفضيلة « فضيلة العدالة » عرضا فلسفيا تاريخيا على قدر ما سمح لنا به الزمان والمكان ، نستعينه تعالسى في معالجة الناحية العلمية لهذه الفضيلة ، لان معالجة النواحي النظرية والتاريخية المحضة لا يؤتي من الثمرات كل ما يطمح اليه المصلح الاخلاقي . وان عناصر هذا البحث لتستدعي ، بديا ، ايضاح الاسباب والعوامل النفسية ، والطبيعية ، والاجتماعية ، التي تنحرف بالافراد والجماعات عن سنن العدل ، وتحملهم على مركب الجور والبغي ، وتلبسهم من رذيلة الظلم لبوسا ما كان احراهم بأن يلبسوا بدلا منه لبوس العفة والعدالة ، لتظهر انسانيتهم في ابهى مجاليتها واسمى معانيها . كما انها تستدعي ، بعد ذلك متابعة البحث عن افضل طرق العلاج الاخلاقي ، وعن انجح الادوية والمطهرات النفسية التي يرجى منها براء النفوس الانسانية من ادران تلك الرذيلة الخبيثة القاتلة .

ونعني هنا بالاسباب والعوامل النفسية تلك الظواهر الفطرية ،

التي يدلنا البحث الدقيق على أنها بعض طبيعة الانسان ومنذ سوي انسانا، ومن قبل ان تلجئه طبيعة البيئة او عدوى المجتمع الى مقارفة الظلم والعدوان ، كما نعني بالاسباب الطبيعية تلك الضرورات المادية التي يلجأ بسببها الكائن الانساني الى العدوان دفاغا عن النفس ، مضطرا الى ظلم سواه في سبيل العيش او قتل نفسه جوعا وحزمانا اذا كف عن ذلك العدوان . اما الاسباب والعوامل الاجتماعية فنعني بها تلك النزوات التي تدفع الانسان الى العدوان ، متأثرا بروح الجماعة التي يعيش فيها ، ولأجل تحقيق مطامح لا تقضيها ضرورة الحياة ، وانما هي ضرب من الاشر والبطر والتجني وحب الغلب والسيادة والظهور بمظاهر البطولة ، يقلد الصغير فيها الكبير ، ويتبع اللاحق فيها السابق .

وبالرجوع الى مظاهر التطور الانساني في التاريخ ، نجد ان النوع الاول وهو العوامل النفسية هو اقدم الاسباب والعوامل جميعا في الطبيعة الانسانية ، بل لقد ذهبت بعض الديانات ، واشتط منها بعض الفلاسفة المتشائمين ، الى ان العدوان والبعي هو الطبيعة الانسانية كلها، ولذا اوجبت الرحمة ان تكون نهاية هذا البدن المدنس ان يحرق بالنار بعد الموت تطهيرا له ، اذ لا سبيل الى تطهيره مادام ينبض فيه بالحياة عرق . ويقول بعض الفلاسفة المتشائمين :

خست يا أمنا الدنيا فأف لنا

بنو الخسيصة أو باش أخساء

ويقول :

اذا بكر جنى فتوق عمرا

فان كليهما لآب وأم

اما الحكيم الشاعر المتنبي فيقول :
والظلم من شيم النفوس فان تجد

ذا عفة فلعله لا يظلم

ولعل هذه الحكمة ، على ما يتوثب فيها من ثورة نفسية ، لم تبعد
عن الحقيقة كثيرا .

ان الظلم بلا مراء ، هو بعض شيم النفس الانسانية ، وكم فيها من
عجائب وغرائب ! كم فيها من خير وكم فيها من شر ، وانما الموجه فسي
حكمة المتنبي أنه يضع الظلم في الكفة الراجحة ، لان اية فضيلة
تقابله لن تستطيع الرجحان الا ومعها علة تتيح في الطبيعة الانسانية مفخرا .

وعندي انه مهما يكن في تلك الفضائل التي تقابل الظلم من مفاخر، ومهما
كان عللها تعد خيرا اذا ما قورنت برذيلة الظلم نفسها على بشاعتها وقبحها .

وهذه العوامل النفسية التي تمد رذيلة الظلم في الطبيعة الانسانية
تنوع وتشكل ، فبعضها يرجع الى الغرائز نفسها حين تتحرك في
الانسان ، كما تتحرك في الذئب والقرود والنمر ثم لا تجد بازائها من
الحصانة العقلية والحكمة ما يرد على ميولها السافلة ، ويكسر من شرتها
ويلطف من حدتها . والنتيجة العملية لتلك الميول اما ان تكون على
النفس او على العرض او على المال او على السمعة التي يمتاز بها ذو
المواهب والفضائل ، او على مواهبهم نفسها .

ولسنا نبالغ اذا قلنا ان جميع الناس ، خلا المعصومين منهم ، عرضة
لمقارنة هذه الرذيلة ، خطأ نادرا في الاخيار ، وطبعا وعادة في الاشرار .

وبهذه الدوافع النفسية كانت اول مأساة من الظلم اذ ازهق فيها
قاييل نفس اخيه هاييل ، غيرة وحسدا دون ذنب او جريرة تستاهل ذلك

العدوان « وائل عليهم نبأ ابني آدم بالحق اذ قربا قربانا ، فتقبل من احدهما ولم يتقبل من الآخر قال لاقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت الي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي اليك لاقتلك اني اخاف الله رب العالمين .. » الآيات الكريمة من سورة المائدة .

وقد يكون من تلك العوامل النفسية حالات مرضية طاغية ، يزيد بها غرور المنصب والسلطة هوسا الي هوس . ومن ذلك ما يروى عن الظالم الشهير الامبراطور نيرون الحاكم الروماني في النصف الثاني من القرن الاول الميلادي : أنه اضرم النار في مدينة روما ثم جلس على مرتفع يطل منه على المدينة ، منتشيا بمنظر اللهب ، يدمر كل شيء تدميرا على حين كانت انغام الموسيقى تصدح في مجلسه لتزيده جنونا على جنون .

وسواء أصحت الرواية في هذا أم كانت مبالغة في تهويل ظلم ذلك الطاغية ، فانها صورة من صور الطغيان جديرة بأن تضرب مثلا لذلك النوع المرضي الجنوني . على انها مع ما فيها من بشاعة ليست امرا مستحيلا ولا مستبعدا . وقد اسلفنا في مقال قبل هذا ما كان من امر فرعون موسى اذ قال : « يا هامان ابن لي صرحا لعلي ابلغ الاسباب ، اسباب السموات فاطلع الى اله موسى واني لاظنه كاذبا ... » وفي هذا ما يمكن ان يضرب مثلا للهوس وجنون القوة .

اما عن اسباب هذا المرض النفسي نفسها فأمر يجدر بنا ان نتترك ألتنعق في تحليله لاساطين علم النفس . ومع ذلك فان الملاحظة التاريخية تشعرنا بأن منها ما هو خلل في الفطرة نفسها ، كما مر مثاله في نيرون وفرعون . ومنها ما هو من قبيل « مركب النقص » الذي تبدو اعراضه على كثيرين من الذين يمتنون الى بيئات وضعية ثم يضلون عن طريق

الوصولية ، او سواها ، الى الرياسة والنفوذ .

ولسنا نبالغ اذا قلنا : ان اكثر الصوالين بالظلم هم نبست هذه
البيئات ، ولسنا نعني هنا البيئات الفقيرة ، كما قد يظن ، فكم ينبت
منها احيانا من عظماء وفضلاء حقيقيين ، انما نعني تلك البيئات المنحلة
المسرفة التي لا تعرف قانونا للحياة يلتزم ، ولا دستورا للادب يعتدى ،
والتي تتردى دائما بعمالياتها في مهاوى الهون . ان نبات هاتيك الاسر لن
يكون ، في غالب الاحيان الا حسكا وزقوما وعوسجا شائكا كذلك
الذي يقول فيه الشاعر :

عذرنا النخل في ابداء شوك يرد به الانامل عن جناه
فما للعوسج الملعون ابدى لنا شوكا بلا شر جناه

والحق أن الشوك والشواكة سلاح مشروع في سبيل الدفاع عن
العدالة والصالح العام ، اما شوكة الظالمين واشواكهم فليست اكثر من
اذى للانسانية ليس وراءه من ثمر . واذ قد بان لنا ان الظلم في صورته
النفسية ، يرجع في الاكثر الى سببين هما الخلل في الفطرة ، وسوء المنبت
الذي يظهر اثره في صورة « مركب النقص » يحس بنا ان نشير الى ان
« مركب النقص » قد يكون مرده احيانا الى عيب خلقي « بسكر
الخاء » كأن يشعر الحاكم الظالم انه منقوص الحظ من هذه الناحية ،
لانه ضئيل نحيل او ذو عاهة منفرة ، او بشع الصورة او ما الى ذلك من
أسباب يساعدها جهله ان هذه العيوب الجسمانية غير جدية بأن يؤبه
لها فيصور له خياله السقيم ان لا مفر له من تعويض هذا النقص باظهار
التجبر والعسف ، لينال الاحترام قسرا بعد ان فاته طواعية . ولو كان
له من العلم ما يشعره ، أن فضيلة العدالة هي اسمى من كل جمال جسماني

في هذه الدنيا ، لاختار لوسها وتزين بها فكان من الموفقين •

وتدلنا التجارب على ان « الخلل في الفطرة » داء عسير العلاج
لانه الحماقة التي بقي من يداويها • أما « مركب النقص » فلا علاج له الا
ان ينتبه الرؤساء الى ملاحظة مرؤوسيههم ، ويتبعوا سلوكهم وسيرتهم في
الناس ، ويرشدوهم الى ما هو الافوم من السلوك مع ابناء مجتسعهم ، وان
يعلسوهم بالفدوة في انفسهم وانما هم مواطنوهم وسبب نعمتهم ، وانهم
بدون ابناء مجتسعهم لن يكونوا شيئا مذكورا • ومن يرجع الى تاريخ
الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يتعلم من فضيلة العدالة ما
يعني عن دراسته اسفارا كاملة • وحبذا العسل الطيب لو تنبه وعاظنا الى
هذا السبيل ، وشغلوا انفسهم به ودلفوا الى كل من ينحرف عن جادة
العدالة من عمال الدولة ، واخذوه بالنصائح اللطيفة ومدح التواضع ،
وشرح مزية العدل وفوائده للحاكم والمحكوم على السواء ، وقديما ايام
العصور المظلمة كان الوعاظ يتحايلون لوعظ الظالمين بوضع حكايات
تعنيهم ، على السنة الحيوان ، لتقرع اسماعهم في لطف وتلج الى
قلوبهم في رفق • فهل يعز على وعاظ زماننا ، وهو عصر النور ، والحرية،
والصراحة ان يشنوا حربا سلمية حكيمية على هذه الرذيلة الشنعاء ،
ليغسلوا من اوضارها قلوب مرضاها ؟ •

اما الاسباب والعوامل الطبيعية ، والاجتماعية لرذيلة الظلم ، فنوعان
يتداخلان ويتشابكان لان قسوة البيئة واجدادها مؤثرات مادية
تدفع بطبيعتها الانسان الى العدوان ، دفاعا عن الحياة ، كما شوهد ذلك
في الجاهلية العربية ، وشعوب الجرمان قديما ، والجزائر البريطانية قبل
ان تعزو وتفتح وتستخدم اساطيلها في السيطرة على الاقطار والامم
المختلفة •

بدأت تلك الامم وامثالها الحياة في بيئات فقيرة ، تدفع ابناءها الى

العدوان ، فقتلوا وسلبوا ونهبوا حتى تعودوا القتل والسلب والنهب ، ولكن بعض هاتيك الامم تقدمت في مدارج الحضارة وال عمران خطوات ، بل مسافات شاسعة ، واصبح مكانها مرموقا بالاعظام ، لما هي عليه من العلم والحضارة والنظام . بيد أن عوامل اخرى للظلم والعدوان ، قد نشأت بنشأة تطورها الاجتماعي وترقت معه كما ترقى . فاصبحت تلك الامم تنظم ذلك العدوان على الامم ، وتلبسه اسماء مخترعة فتسميه « ترقية الامم المتأخرة » ، « حرية الاقليات » او « مواقع استراتيجية » ، الى غير ذلك مما عرفه العالم ، حتى اصبح نعمة ممنوعة وحديثا معادا ، وما هو في الحقيقة الا ان هذه الامم مع ترقيا تعودت مستوى اجتماعيا من الحياة يقتضيها السيطرة على كل موارد العالم لو استطاعت الى ذلك سبيلا .

ودعوى القوي كدعوى السباع

من الظفر والنا بـرهانها

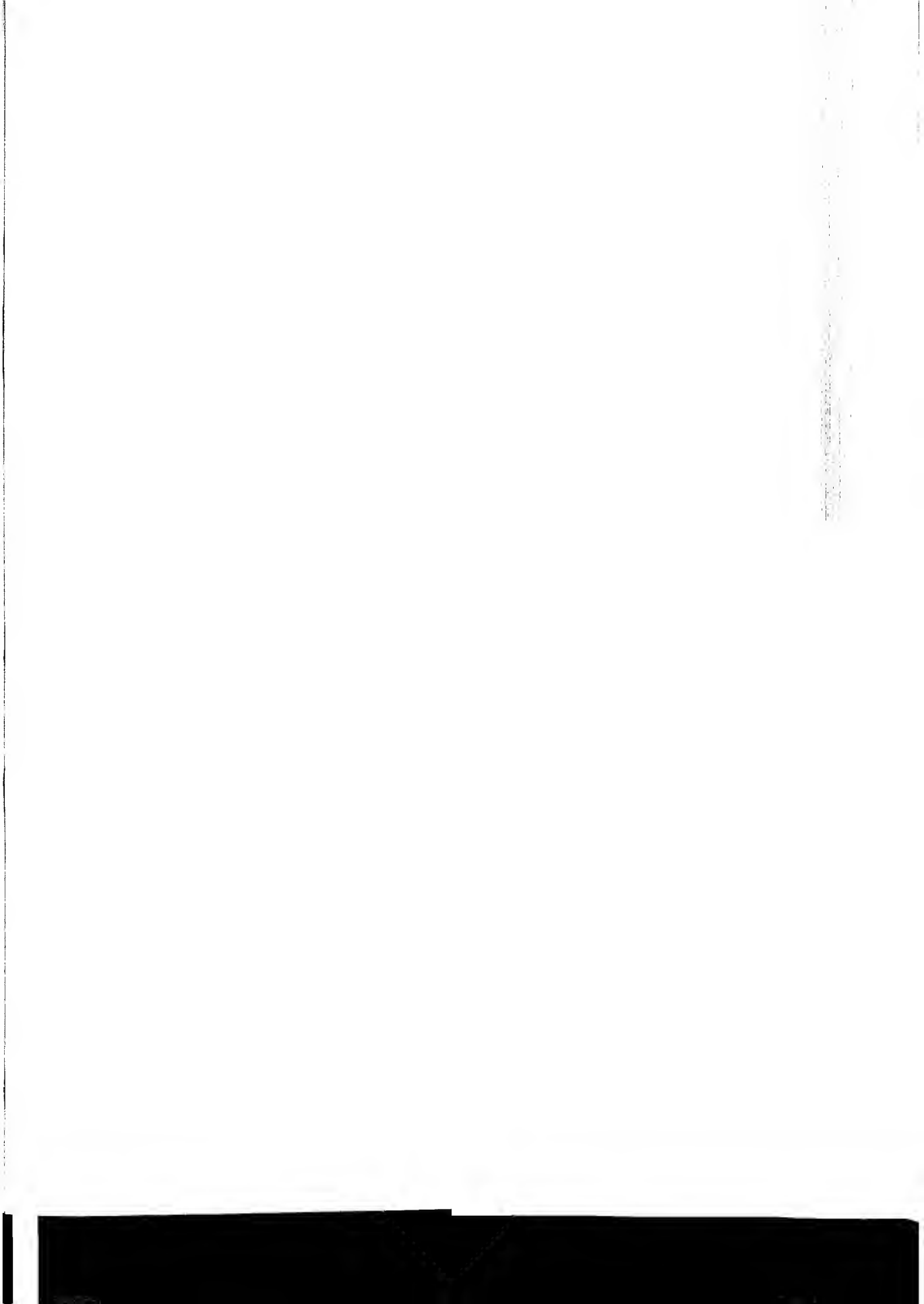
ولو ذهبنا لفحص تلك الدعاوى وتلك البراهين لدخلنا في طريق لا ينتهي .

وحسبنا هنا ان ندعو تلك الامم بدعوة الانسانية لكي تثوب الى رشدها وتؤثر العدالة ، وتبذل جهودها في مساعدة الامم الاخرى حقا وصدقا ، والا فانها ستظل عادية معادية عليها ، قاتلة مقتولة ، لا تنتهي من حرب الا لتدخل اخرى ، ولا تظفر بنصر الا وقد اشترته باغلى من ثمنه اضعافا مضاعفة . وعسى ان تفيق الانسانية من سكرتها ، وتحل العدل محل العدوان ، فان في ذلك اول دعامة من دعائم السلام والامن والسعادة .

وان في تعاليم الاسلام السمعاء لدعوة حارة لهذه العدالة البيضاء . كما انها من دواعي الفخر بحمده تعالى ان موقف امتنا المصرية من هذا المعترك العالمي يعد بحق من مفاخر الانسانية .

عباس طه

فلسفة الأخلاق



ليس بين ما يفتقر اليه الانسان في توثيق صلته بالخالق اولا ثم
بالمخلوق ثانيا ، وفي تعرف طرفي الوجود وتلمس اعلى مراتبه مقرونا
بمظهره الصادق جهد الطاقة ، وفي بلوغه منازل المخلصين
الداعين الى الله والدالين به عليه ، ما له اوثق اتصال بالنفوس من صناعة
الاخلاق .

والاخلاق كما يقول علماء النفس : حلقة الاتصال بين الانسان
ووجوده في كل صورة من صور حياته . ولم تكن تلك الصناعة منذ
عهد الخليقة بالتكاليف ، ومنذ تناجت المعقول بالحقائق ، الاحفاظا وثيقا
للنفوس ان تعصف بها اعاصير الشهوات ، وحجابا صفيقا للفرائز الطيبة
ان تستغويها اعراض المرئيات بما يلبسها من غاشيات الطبيعة .

والاخلاق في كل ما تصدر عنه تستمد وجودها وقوتها من العادة
اولا ، ثم من المزاج ثانيا ، ثم من ترويض النفوس وتدريبها على سلوك
الطريق السوي ثالثا .

وعلى مقدار مسايرة الاخلاق للعادات والامزجة ووسائل التهذيب
تكون قيمة الافعال الصادرة عن الانسان . ووسائل التهذيب هي
المناط في واقع امرها لاسعاد النفوس وتركيز الاخلاق الفاضلة .

اما الامزجة والعادات التي تصدر عنها الافعال في احدى حالتها
فهي خاضعة لناموس بقاء الاصلح . وهذا الناموس قد ثبت انه ساد
الانظمة الوضعية جميعا . لكن ليس على طريقة النشوء والارتقاء ، بل
على معنى ان العقول والنفوس الناطقة مضطرة لان تأخذ بالاجدى عليها

من صور الحياة •

وهذا مصداق قوله سبحانه : « فاما الزبد فيذهب جفاء ، واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض » •

وقد تواضع علماء الاخلاق ، وخاصة المتقدمين منهم ، على ان النفس الناطقة من حيث ما يصدر عنها من الافعال مردها الى قوى ثلاث •
فأولى هذه القوى هي التي يكون بها النظر في النتائج ، مرتبطة بمقدماتها من حيث صحتها وفسادها • واستخراج المجهولات من المعلومات •

وثانيها - القوة التي تصدر عنها الثورة الغضبية او الحمية والنجدة ، والكلف بالظفر والغلبة والاحتياط بصنوف الكرامة للاسر والعشائر والجماعات والافراد ، والامعان بكل الوسائل الممكنة في حب التسلط والقهر والاذعان لشهوة الانتقام •

وثالثها - القوة التي بها اثاره الشهوة في صنوفها المتنوعة في المآكل والمشارب وما اليها من الوان استمتاع الجوارح •

ويجب ان تبقى هذه القوى الثلاث متكافئة لتبقى متعادلة، والالزم من عدم تكافئها طغيان بعضها على بعض • على ان جمهرة من علماء النفس عقبوا على تلك النظرية الاخيرة بما يتفق مع قاعدة (تنازع البقاء) حتى في الامور المعنوية •

ومما لا سبيل الى انكاره ان لقوام الاخلاق وملاكها في مجموعها قوى ثلاثا ، هذه القوى في حقيقتها نسبية ، فتكون مقولة بالتشكيك قوة وضعفا وقلة وكثرة بالقياس الى ما ترجع اليه هذه القوى الثلاث من المزاج والعادة والتهديب ، على ما ذهب اليه الكثيرون من علماء النفس الاقدمين •

هذه القوة ذات آلات ثلاث يختلف بعضها عن بعض اختلافا قويا ، نظرا لما يترتب على كل واحدة منها من الآثار . فمثلا نرى الدماغ والقلب والكبد في مجموعتها الآلية ، ادوات مباشرة لتلك القوى الثلاث التي هي عماد الاخلاق وملاكها وعدتها وذخرها .

فالقوة الغضبية او السبعية لها من البدن ، جند يطيعها ويستجيب دعائها ، وهي الجوارح . وللقوة الناطقة اداة تعينها على تحقيق مرادها ، ويعبرون عنها بالقوة الملكية ، تلك الاداة من الجسم ، هي الدماغ . كذلك للقوة الشهوية او البهيمية آلة تدير شؤونها وهي الكبد .

وغني عن البيان ان عدد الفضائل ينبغي ان يكون بحسب اعداد هذه القوى وتأثرها بها ، فمتى كانت حركة النفس الناطقة في سيرها معتدلة رشيدة شيقة الى تعرف النظريات الصحيحة من اشكالها المنتجة ترود الامور بوسائلها وتأخذ الاشياء بأسبابها ، نشأت عنها فضيلة العلم وتلزمها ايضا فضيلة الحكمة .

ومتى كانت حركة النفس الشهوية معتدلة في سيرها منقادة ، الى تدابير النفس العاقلة غير متعاصية عليها ، ولا ممعنة في الاصغاء لهواها ، نشأت عنها فضيلة العفة ، وتلزمها فضيلة السخاء .

واذا كانت حركة النفس السبعية معتدلة مستقيمة لداعية النفس العاقلة ، فلا تنبرم ، لا تتسخط ولا تشكو ولا تهيج في غير حينها ، ولا تحمى اكثر مما ينبغي لها ، نشأت عنها فضيلة الحلم ، وتلزمها فضيلة الشجاعة .

ولهذه الفضائل الثلاث اللازمة عن تلك الفضائل التي نشأت عن القوى الثلاث فضيلة هي فضلى الفضائل ، ومرمى كل نابل ، وهي المثل

الاعلى للانسان الكامل ، واعني بها فضيلة العدالة .

لذلك لم يبد عجبا ان يطبق الحكماء على ان الفضائل اربع ، وهي الاجناس العالية لما عداها من الفضائل ، وقد اكثر الاخلاقيون من الاشادة بخصائص هذه الاجناس الاربعة ، وما ينطوي تحتها من الانواع ، ثم سبطوا السننهم بحثا واستقصاء في تعرف انواع هذه الاجناس وامتدادها ، وامراض النفوس وعلاجاتها ، حتى قال صاحب كتاب (الذريعة في مكارم الشريعة) :

ان النفس اذا استعصى عليها ان تجمع بين هذه الفضائل كان خليقا يصاحبها ان يكون كالشجرة الجرداء ، تعترض الناس في غدواتهم وروحاتهم ، فلا هم يستمرئون ثمارها ، ولا هم ينقيؤون وارف ظلها .

وفي الحق ان تلك الاجناس العالية هي مميزات الانسان الكامل ، كما هو حال الانبياء والرسول . ثم من بعدهم خلفاؤهم من العلماء المخلصين والهداة المرشدين . ولعل هذا مصداق قول الرسول : « تخلقوا بخلق الله » . فمن التخلق باخلاق الله ، العمل بمحاب الله ومراضيه في الحياتين العاجلة والاجلة .

ومن هذه الناحية قالوا في تعريف الحكمة : انها فضيلة النفس الناطقة المميزة ، وهي ان تعلم الموجودات كلها من حيث هي موجودة ، وان تعلم الامور اللاهوتية والناسوتية ، وان تميز بعض المعقولات عن البعض الآخر : ايها يجب ان يفعل ، وايها يجب ان يهمل .

كذلك قالوا في تعريف العفة ، انها فضيلة في الحس الشهواني . واطهر مظاهر هذه الفضيلة في الانسان ، ان يستطيع بها الفل من

غرب شهواته ، او ان يصرفها على الاقل تصريفا مقترنا بالرأي الذي يصيب غالبا حتى يكون طليقا من اسر الشهوات غير متعبد لسلطانها ، والا كان كما قال قائلهم :

رب مستور سبته شهوة مذعري من ستره وانتهكا
صاحب الشهوة عبد فاذا ملك الشهوة اضحى ملكا

واذا فيكون الحد الناقص للشجاعة انها فضيلة النفس السبعية .
واظهر مظاهرها في الانسان ايضا اتقيادها للنفس العاقلة ، على معنى ان تلقى تلك الفضيلة في نفسه حسن تصريف الامور في عزم وحزم ، وان يستبسل في جسام الخطوب في الليالي الحوالك في رأي يكون اقرب الى الصواب منه الى الخطأ ، مع البصر بحسن العاقبة وخير المنقلب ، واذا تكون العدالة مجتمعة الى تلك الفضائل رابعة الاربع • الخلق - خير الحدود واحسنها ضبطا وادانها استقصاء • انه حال للنفس داعية لها الى افعالها من غير فكر ولا روية • وهذه الحال تشتمل ثلاثة اقسام ، خلافا لما ذهب اليه صاحب التهذيب (الامام احمد بن مسكويه) •

اولها - ما هو طبيعي راجع الى الحالة التكوينية للسزاج العصبي ، كالانسان الذي يحركه ادنى شيء نحو غضب ، ويهيجه اقل سبب • وكالانسان الذي يتأثر من ايسر شيء ، كالذي يفزع من ادنى صوت يطرق سمعه او يرتاع من خبر يسمعه ، وكالذي يضحك ضحكا مفرطا من ادنى شيء يعجبه ، وكالذي يغتم ويحزن من ايسر شيء يبدو له •

وثانيها - ما يكون مستفادا بالعادة والتدريب ، وربما كان مبعوثا بالرؤية والفكر ، ثم يستمر عليه اولا فاولا حتى يصير ملكة وخلقاً •

وثالثها - ما يكون بتلقيين الملقن وارشاد المرشد عن تبصر وحسن روية * وهذا هو الفوز الاكبر في رأي جمهرة الاخلاقيين ، لان اصلاح النفوس وتقويمها بحاجة ايدا الى الارشاد ، حتى تبقى وظيفة الكتب السماوية جلية الاثر ، جمة العبر * وحتى تظل المواعظ الحسنة والحكم البالغة باقية على وجه الزمن *

اما اختلاف الاقدمين في تعريف الخلق ، وذهاب طائفة من اهل التصوف الى بعض الآراء التي تفردوا بها والمقارنة بينها وبين الآراء الحديثة والتعقيب على الضعيف منها *

اصول الاخلاق - تواضع علماء الاخلاق الاقدمون على ان اصول الاخلاق كلها اربعة وهي : الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة ، اذا احكم تديرها وروعيت شروطها ، ظفر الانسان في ادوار وجوده من الحياتين بالفوز الاكبر *

وقد اطبق علماء الاخلاق وعلماء النفس على ان كل اصل من تلك الاصول الاربعة ، تنضوي تحته جزئيات متولدة عنه ، هي في واقع امرها ملاك المجتمع وعماده وهي اساسه وعتاده *

فالحكمة مثلا ينضوي تحتها الذكاء والتعقل ، وصفاء الذهن وسرعة الفهم وقوته والذكر وسهولة التعليم *

والحكمة هي العلم بالموجودات من حيث هي موجودة * وبالتالي العلم بالامور اللاهوتية ، ليكمل العلم بالحياتين : المعاش والمعاد *

ومتى كان العلم برهانيا فلا سبيل الى الشك في ان ما يصدر عنه برهاني كذلك * فالذكاء وهو احدى المنضويات تحت ما صدق الحكمة ،

هو سرعة انقذاح النتائج وسهولتها على النفس ، بحيث تكون مقدمات تلك النتائج متصلة بالقضايا الصحيحة حملية كانت او شرطية •

والتعقل هو موافقة بحث النفس عن الاشياء الموضوعه بقدر ما هي عليه • وصفاء الذهن هو استعداد النفس لاستخراج المطلوب ليكون سبيل الاستنتاج مستبيناً •

وجودة الذهن او قوته وحدته هي تأمل النفس لما قد لزم عن المقدم، بحيث ان وظيفة النفس تكون قائمة على تعرف قوة ما بين التالي والمقدم من اللزوم •

وسهولة التعلم هي حدة في الفهم وصفاء في النفس بها تدرك الامور النظرية • ثم يأتي دور الكلام عن المنضويات من الفضائل تحت فضيلة العفة ، التي هي اصلها ومصدر وجودها •

فهي الحياة والدعة والصبر والسخاء والحرية والقناعة والدمائة والانتظام وحسن الهدى والمسألة والوقار والورع •

فالحياء هو انحصار النفس او وقوفها عند حد معين مخافة اتيان القبائح حذار الدم والوقوع في الناس على وجه يطابق الواقع •

والدعة هي سكون النفس عند حركة الشهوة المدلة ، فاذا ما ثارت في النفس شهوة الانتقام او التسلط او الغلبة والظفر للجاء او للمال او للنفس ثورة تجاوز بصاحبها نقطة الهدف وحد الاعتدال ، كان من الدعة الفل من غرب تلك النفوس الجامحة ، وان تقتل تلك الشهوة الشائرة في انواعها المترامية في اطرافها •

فالدعة اخص من العدالة وهي نوع من الورع الذي يحبو به

الله كثيرا من خلقه ، فهي لا تنفك عن الصبر على الكرائه والمفزععات •
وهي نوع من انواع الرضا بالقضاء والقدر •

والسخاء هو التوسط في الاعطاء ، وهو ان ينفق المال فيما ينبغي
على مقدار ما ينبغي •

والحرية هي فضيلة للنفس بها يكتسب المال من وجهه ويعطى
في وجهه ، وتمنع من اكتسابه من غير وجهه •
والقناعة هي التساهل في المآكل والمشرب والزينة •

وليست الاخلاق في حقيقة صورها المختلفة شيئا آخر غير جماع
الخير وينبوع السعادات كلها • على ان كثيرا من علماء الاخلاق اختلفوا
في تركز الخلق او تحوله احتلافا عظيما • فقال بعض الاقدمين منهم :

ان الخلق خاص بالنفس غير الناطقة على معنى انه غير قابل للتحول
والانتقال ، والنفوس الناطقة من طبائعها ان تتحول وتنتقل بالقياس الى
ما يعرض لها من تفاعل بما يقع تحت الحس والمشاهدات والعادات •

ويذهب فريق منهم الى ان شيئا من الاخلاق ليس طبيعيا للانسان
ولا هو غير طبيعي له ، ذلك أنا مطبوعون على قبول الخلق ، فننقل
بالتأديب والمواعظ البالغة ، اما سريعا او بطيئا تبعا لقوة تفاعل النفوس
او ضعفها •

وان كان هذا الرأي الاخير هو المرتضى لجمهوره من الاخلاقيين ،
وجرى عليه ابن حزم في ملله ونحله ، ونحا نحوه الامام الغزالي ، وتابعه
كثير من السلف ، واختاره (جالينوس) وحكاه ابن مسكويه عن
ارسطوطاليس •

وحجة اصحاب هذا الرأي ما يقع لهم من مشاهدات مختلفة ، وما

يتفاعل به المجتمع من المشاهدات ، وما يحيط بها من تطورات مختلفة
وشتى الملابس * ولأن الرأي الاول من جهة اخرى ، يؤدي السى ابطال
وظيفة التمييز في العقل ، ثم الى رفض السياسات كلها وترك الناس
همجا مهملين ، ثم بالتالي ترك الاحداث والصيبة والى ما يتفق ان يكونوا
عليه دون سياسة ولا تعليم *

هذا فضلا عن انه ظاهر الشناعة والسخف جد الظهور ، فهو من
جهة اخرى يلقي بهذا الوجود وما فيه من مظاهر وما يحيط به من بواعث،
الى قذفات الصدف وفروض الاتفاق * ويحيل هذا المجتمع سوقا وضيفة
من السلع ، تكون الغلبة فيه للقوي ، وتتحكم فيه انواع من السلطان
الظالمة ، مأخوذة بدواع من الشهوات في سائر مناحي الانسان * وهذا هو
المعول الهدام لبناء هذا المجتمع *

اما الرواقيون فيما ذهبوا اليه من شذوذ منقطع النظير ، واما
جماعة من المشائين وبعض آراء منسوبة ان صوابا او خطأ الى (جالينوس)
واما ما ذهب اليه فريق من العندية وبعض فلاسفة الهند مما يتنافر مع
النظريات السليمة التي تقوم عليها عمارة هذا الكون *

هذا غيض من فيض مما يتصل بالاخلاق التي يجب ان تكون
في الانسان كأفضل مميزاته بل مقوماته ، وما يتألف منه قوام الاخلاق من
انواع واقسام ، وبخاصة ذلك الطابع الذي يطبع النفس بطابعها الخاص ،
ويروضها على افضل المثل العليا واعمقها اثرا في صميم هذا المجتمع *

وليس من شك في أن كل جسم من الاجسام له صورة تشخصه
وتحدده فلا يقبل صورة اخرى من نوع ما تعين عليه من الصورة الاولى
الا بعد مفارقتة لها *

فمن المسلم به ان الجسم اذا قبل صورة من الصور كالتريبيع او
التلث مثلاً ، فلا يقبل شكلاً آخر كالتدوير ، الا بعد ان يفارقه الشكل
الاول ، كما انه اذا قبل صورة من النقوش او الكتابة او ما اليها ،
فلا يتأتى ان يقبل صورة اخرى كذلك .

ولكن النفوس لا تجري هذه السنة ، فانها تقبل جميع الصور حتى
المتناقضة منها ، ولا تمحو صورة اثر صورة اخرى .

وهذا دليل على انها من جوهر لطيف مبين لجوهر المادة . وان
طباع النفس وخلقها ، تباين طباع الجسم وخواصه ، وانها اكرم جوهرها
وافضل طباعاً من كل ما في العالم من الامور الجسمانية .

والنفس وان كانت تتلقى كثيراً من مبادئ العلوم عن الجسم ، لها
من طبيعتها مبادئ اخرى ، تلك هي المبادئ الشريفة ، والمطالب العالية
التي لا تمت الى عالم الاجسام بأوهى سبب . وهي المبادئ التي تستنبط
منها الاقيسة الصحيحة .

فمثلاً اذا حكمت النفس بان ليس بين النقيضين واسطة فليس ذلك
مأخوذاً عن الحس . وكذلك اذا حكمت على الشيء بانه صادق او كاذب
فلا يمكن ان يكون ذلك وحده مستفاداً من الحس ، ولكنه مستفاد مما
تجده النفس بالقياس الى المقدمات والنتائج .

ونحن نجد النفس العاقلة فينا تستدرك شيئاً غير قليل من خطأ
الجواس ، لانه لا يضاد نفسه فيما يحكم فيه من مبادئ افعالها وفيما
ترد عليها احكامها .

فالبحر مثلاً يجوز عليه ان يخطيء فيما يراه من قرب او من بعد ،
فاما خطؤه البعيد فقد يدرك الشمس مثلاً صغيرة مقدارها عرض قدم

وهي في واقع امرها ، تماثل الارض مليوناً وثلاثمائة مرة عند علماء
الفلك بشهادة البرهان الرياضي .

واما خطؤه في القريب ، فمثاله ضوء الشمس اذا وقع علينا من كوة
صغيرة او من مربعات صغار ، فانه يدرك بها الضوء الواصل اليها منها
مستديرا ، فترد النفس العاقلة عليه ذلك الحكم وتغلطه في ادراكه ، وتعلم
انه ليس كما يراه .

ويخطيء البصر ايضا في حركة السفينة والناطىء والنجوم
والكواكب . ويخطيء في الاشجار المتراسة وفي النخيل ، وفيما هو
متجاسس الابعاد حين يراها مختلفة في اوضاعها .

ويخطيء ايضا في الاشياء الغائصة في الماء حتى يرى بعضها اكبر
من مقداره ، ويرى بعضها معوجا وهو مستقيم ، فيستخرج العقل
اسباب هذه الاشياء كلها من مبادئ علمية، ويحكم عليها احكاما صحيحة .
ويخطيء ايضا في الاشياء التي تتحرك على الاستدارة حتى يراها كالحلقة
والطوق . وكذلك الحال في حاسة السمع وحاسة الذوق وحاسة الشم
وحاسة اللمس ، فالعقل هنا يرد القضايا ويقف منها موقف المدافع
الذائد عن بيبضته ، ثم هو يستخرج اسبابها ويحكم فيها احكاما ظاهرة
الصحة . والحاكم في الشيء المزيف له او المصحح افضل بكثير واعلى
رتبة من المحكوم عليه .

وعلى الاطلاق فان النفس اذا علمت ان الحس صدق في تقديره او
كذب ، فليست تأخذ هذا العلم من الحس قطعا ، ثم اذا علمت انها قد
ادركت معقولاتها فليست تعلم هذا العلم من علم آخر ، ولكن من ذاتها ،
لانها لو علمت هذا العلم من علم آخر لاحتاجت في ذلك العلم ايضا

الى علم آخر ، وهذا يمر بلا نهاية ، وليست تحتاج في ادراكها ذاتها ،
الى شيء آخر غير ذاتها • ولهذا قيل في اواخر هذا العلم : ان العقل
والعاقل والمعقول شيء واحد •

واذ قد تبين من هذه الاشياء بياننا واضحا ان النفس ليست
بجسم ولا بجزء من جسم ولا حال من احوال الجسم ، وانها شيء آخر
مفارق للجسم بجوهره واحكامه وخواصه وافعاله ، فلا بد من ان نعرض
لشيء غير قليل مما تصبو اليه النفوس ويدخل في متناول عقليتها فيقول :

من المسلم به ان النفس شيقة الى معالجة الفضائل مع نبوها عن
الافعال الجسمانية العالقة بعالم الاجسام •

والفضائل لا يستطيع تحصيلها الا بعد ان تطهر نفوسنا من الرذائل
التي هي اضدادها ، وهي شهواتها الرديئة الجسمانية ، ونزواتها الفاحشة
البهيمية •

فان الانسان الخير اذا علم ان هذه الاشياء ليست فضائل بل هي
رذائل ، تجنّبها وكره ان يوصف بها • واذا ظن انها فضائل لزمها وصارت
عادة •

وهكذا تصبو النفوس الخيرة الى كل معاني الخير ، وتنبو عن كل
معاني الشر • مما يحتاج معه الى تبيان الاوضاع الناجمة عن ذلك ،
والكشف عن عللها على ضوء آراء الاخلاقيين لتكوين الصورة الواضحة
التي يركن المرء اليها •

وهنا يتوجب علينا ان نعرض ولو لماما الى شوق النفس وما
يصدر عنها من الافعال المميزة لها عن النفوس غير الناطقة ، فشوق النفس
الى العلوم والمعارف فضيلة من فضائلها ، بل هي الفضيلة العظمى التي

ارتبت على كل فضيلة منذ قيام البشرية في الارض بعبء التكاليف •
وعلى مقدار طلب الانسان لهذه الفضيلة واستلهاها الاصلح منها في
شتى مناحيها والتغلب على العوائق التي تقطعه عنها ، يكون نجاحه فيها •
وبدهي ان الفضائل من حيث هي كذلك ، لا يستطيع تحصيلها الا
بعد ان تخلص النفوس من الرذائل التي هي اضرار تلك الفضائل
وتقائضها ، وهي شهواتها الشائرة الجسمانية ، ونزواتها الفاحشة
البهيمية •

ذلك لان الغرض المقصود من وجود الانسان حين يتوجه اليه هو
ما يجب ان يسمى الشخص به خيراً او سعيداً • اما من عاقته العوائق
وصرفته الصوارف عن بلوغ ما يحصله من مميزات الانسان الذي يحمل
النفوس الناطقة ، فهو الشرير او الشقي •

فالمميزات اذا ، هي التي تحصل للانسان بارادته وفعله واختياره
وسعيه في الامور التي من اجلها وجد الانسان وقام بمهمة عمارة الكون
وتحري افضل برامج الحياة •

وقد قسم الفلاسفة الاولون الاخلاق الى اقسام شتى ، فمنها
ما هي شريفة ، ومنها ما هي ممدوحة ، ومنها ما هي بالقوة
كذلك •

ومن الواضح ان لكل موجود من الموجودات كمالا خاصا وفعلا لا
يشاركه فيه غيره من الموجودات • وهذا الحكم مستمر في الامور العلوية
والسفلية ، كالشمس وسائر الكواكب ، وكأنواع الحيوانات والنبات
والمعادن •

ولكن الانسان من بين سائر الموجودات له فعل خاص لا يشاركه

فيه غيره وهو ما صدر عن قوته المميّزة العاقلة ، فكل من كان تمييزه اصح ورؤيته اصدق واختياره افضل ، كان اكمل في انسانيته وابلغ في معقوليته وافعل فيما يترتب عليها من الآثار •

وكما ان السيف والمنشار مثلا ، وان صدر عن كل واحد منهما فعله الخاص وهو القطع بالقياس الى كل واحد منهما منفردا عن صاحبه ، يختلفان في كيفية القطع وسرعته وبلوغ الغاية منه على اكمل وجوهها ، فكذلك الانسان بالقياس الى ما دونه من بني جنسه •

وكذلك الشأن في الفرس والبازي وسائر الحيوانات ، فان افضل الافراس ما كان اسرع حركة وعدوا واشد نشاطا وتيقظا لما يريد الفارس منه من طاعة اللجام وحسن القبول في الحركات وخفة العدو والنشاط •

فكذلك الناس افضلهم من كان حريصا على افعاله الخاصة به واشد تمسكا بشرائط جوهره الذي تميز به عن الموجودات •

واذا يكون من الاخرى بكل ذي مسكة من العقل ان يحرص الحرص كله على الاستمسك باسباب الخير ومصادره ، وان يفر بدينه وعرضه وخلقه من اسباب الشر وبواعثه ليستكمل من الحياتين اوفر حفظ واوفى نصيب • فان الحيوان كالفرس مثلا اذا بدا منه تقصير عن الحد الذي ينعت الفرسية وانحط عن الفضل المتمم لماهيته ، بحيث لم تظهر مميزاته اللاصقة به على اكملها واتم وجوهها ، انحدر الى مرتبة الحمر وكان خليقا ان يؤخذ بالاكاف ، وان يساق بالعصا كما تساق الحمر •

وكذلك حال السيف وسائر الآلات متى قصرت عن اداء ما يحفظ لها نعوتها ، انحطت عن مراتبها الى ما دونها واستعملت استعمالا يتفق وما هبطت اليه من غير مستواها الموجهة اليه •

فالإنسان اذا نقصت افعاله وقصر فيما خلق له وقامت في وجهه الصوارف لفعله الصادر عنه باختياره بحيث تكون افعاله الصادرة عن رويته غير بالغة حد الانسانية المهذبة العاقلة ، انحط الى مرتبة البهائم والتحق باصناف ليست من صنفه .

اما اذا صدرت عنه تلك الافعال مضادة لانواع الخير بحيث تكون مظاهر من الشر ومجموعة غير صالحة من الرذائل التي من شأنها ان تصرفه عما عرض له من تزكية نفسه وصقلها في قالب من الخير ينتهي به الى الملك الرفيع والجاه المنيع والسرور السرمدي والعيش الرضي ، وانخدع عن هذه الموهبة السرمدية الشريفة بتلك الحساسات الوقتية التي لا ثبات لها ، كان خليقا بالملتق من خالقه ، حقيقا بالثناء له .

واذا تجلّى للناظر ان سعادة كل انسان تكون بالقياس لما يصدر عنه من الافعال ، المميّزة للإنسان والتي هي جزء من مقوماته ، وان هذه السعادة المترتبة عما يصدر عنه من الافعال مراتب كثيرة بحسب الروية والمروى فيه ، ولذلك قيل : افضل الروية ما كان في افضل مروى .

ثم ينزل مرتبة فمرتبة الى ان ينتهي الى النظر في الامور الممكنة من العالم الحسي ، فيكون الناظر في هذه الاشياء قد استخدم رويته والصورة المميّزة له ، التي بها صار سعيدا متأهلا للملك الابدي والنعيم السرمدي ، بالقياس الى اشياء دنيئة وامور تافهة ، لا ثبات لها ولا ظل لها من الحقيقة .

فقد تبين ان هناك اجناسا من السعادات على الجملة ، وان اجناسا من الشكاوات على الجملة ، تنحل هذه وتلك الى جزئيات بحسب ما يصدر

عن الانسان من العوامل الموجبة والسالبة ، وبحسب ما تتفاعل به نفسه
منساقفة بعوامل الخير او بدوافع الشر ، وكل ميسر لما خلق له ، وان
الخيرات والشورور في الافعال الارادية هي اما باختيار الافضل والعمل
به ، واما باختيار الادون والميل اليه •

ولما كانت هذه الخيرات الانسانية وملكاتنا التي في النفس كثيرة
ولم يكن في طاقة الانسان الواحد القيام بجميعها ، وجب ان يقوم
بجميعها جماعة كثيرة منهم •

ولذلك وجب ان تكون اشخاص كثيرة وان يجتمعوا في زمان واحد
على تحصيل هذه السعادات المشتركة لتكميل كل واحد منهم بمعاونة
الباقيين له ، فتكون الخيرات مشتركة والسعادة معروضة بينهم
فيتوزعونها •

ولاجل ذلك وجب على الناس ان يحب بعضهم بعضا ، لان كل واحد
يرى كماله عند الآخر ، ولولا ذلك لما تمت للفرد سعادته ، فيكون اذا كل
واحد بمنزلة عضو من اعضاء البدن، وقوام الانسان بتمام اعضاء بدنه •

يتضح من هذا ان هناك قسما غير قليل من الفروق المتفاوتة في بني
الانسان ، وان النفوس تتفاضل بتفاضل البداءة واختلاف الثقافات ، والآن
نريد ان نعرض للإنسان من حيث كونه مصدر الخير او الشر ، وكيف
يكون اقلاعه عنهما بطيئا او سريعا •

فالانسان بما اسبغ الله عليه من نعمة التفرد بجوهره عما يشاركه
فيها من العوالم الاخرى حتى صار ملكا قائما على عالم الاجرام ،
وخليفة لله في ارضه ، يستجمع بين حواسه الظاهرة والباطنة ، ويدخر
في قواه المفكرة وحركاته الارادية ، ما يدبر به تلك المملكة ، ويتصرف

بمقتضاها تصرفا هو اجدى انواع التصرفات واروح لسائر الكائنات ،
وابرز وجودا واطول خلودا •

من اجل ذلك ، يذهب الاخلاقيون الى ان كل ما يصدر عن الانسان
من حيث كونه كذلك ، يجب ان يكون تاما في فعله ووصفه ، وهذا
ضروري لان صناعة الاخلاق ، قائمة على تركيز الخلق في الانسان ،
واحاطته بسياج صفيق، واتخاذ الفضائل الاربع التي اسلفنا للقارئ كثيرا
من فيوضاتها ، حتى يقاوم الخير في النفوس بما ركز فيها من خلق
عاديات الشر وغوائل الطبيعة • ومتى احكم ذلك السياج المنيع بتدبير
من الروية والهام من الخير ، وجب ان يكون الانسان في مملكته اعلى
المثل الطيبة في جميع ما يصدر عنه •

فاذا كانت جواهر الموجودات متفاوتة في الشرف ، نظرا لما يصدر
عنها من آثار ضارة او نافعة ، كانت بالقياس الى ما تنزع اليه شريفة
او وضيمة •

اما الانسان من بين هذه الموجودات ، فهو متحل بضروب من
الاستعدادات لضروب من المقامات ، وليس ينبغي ان يكون الطمع في
استصلاحه على مرتبة واحدة •

وان ما يجب ان يعلم قبل كل شيء ، هو ان وجود الجوهر الانساني
متعلق بقدرته خالقه ومنشئه سبحانه وتعالى عن الشبيه والنظير •

غير ان تجديد ذلك الجوهر بوسائل قمع الشهوات واحلال اضدادها
مكانها ، وتمحيض ذلك الجوهر للخير قدر الجهد ، حتى يصهر النفوس
الشريرة من علائقها ، ويكبح فيها ملكة الجموح ، ويحيلها الى نوع من
السعادات ، انما هو عمل الانسان ومتعلقات قدرته ، واثر من آثار

• ارادته •

ومما لا مرية فيه ان الاخلاقيين معنيون ابدا بتعرف ان نفوسنا ما هي ولاي شيء هي ، وان لكل جوهر موجود كمالا خاصا به وفعلا لا يشاركه فيه غيره من حيث هو ذلك الشيء •

لذلك كنا نحن ايضا معنيين بمعرفة الكمال الخاص بالانسان ، والفعل الذي لا يشاركه فيه غيره من حيث هو انسان ، لنحرص على طلبه وتحصيله فنسعى بالبلوغ الى قمته •

ولما كان الانسان في حقيقة امره مركبا لا يتجزأ الا من حيث ما يصدر عنه ، كان واجبا ان يكون مفهوما صدور تلك البسائط في افعاله الصادرة عنه •

فاضل الناس هو اقدرهم على اظهار فعله الخاص والزمهم له وادومهم عليه ، من غير تلون فيه ولا اخلال به في وقت دون وقت •

وبذلك اذا عرف الافضل يعرف الانقص ، على اعتبار ملاحظة الغد ، فالكمال الخاص بالانسان يتحل في الحقيقة الى كمالين ، ذلك لان للانسان قوتين : احدهما العاملة والاخرى العاملة •

فباحدي القوتين يشتاق الى المعارف والعلوم ، وبالاخرى الى نظم الامور وتنسيقها ، وبهاتين القوتين سما الانسان الي معارج الكمال وتحلل من اسر المادة وعلائقها ، فقبض بكلتا يديه على مؤسسة هذا الوجود ، واخضعها لتصرفاته التي تعتبر اثرا من آثاره ، ونموذجا صالحا من نماذج الانسانية الفاضلة والخلق الكريم •

فان للانسان في ترتيب هذه الآداب وتلك سياقها اولا فأولا الى الكمال الاعلى طريقا طبيعيا يشتهه فيها بفعل الطبيعة ، بان

ينظر الى القوة التي تحدث فينا ، ايها اسبق الينا وجودا ، وامضى بين ظهرانينا قدما ، فيبدأ بتقويمها ، ثم بما يليها على النظام الطبيعي وهو بين جلي •

ذلك ان اول ما يحدث فينا هو الشيء العام الذي يحدث للمحيوان والنبات بنوع عام ، ثم هو لا يزال يختص بشيء بعد شيء يتميز به عن نوع بعد نوع ، حتى يستحيل الى الانسانية •

من اجل ذلك يذهب الاخلاقيون ، الى ضرورة ان نبدأ اولاً بالشوق الذي يحصل فينا بواسطة الغذاء فنقومه ، ثم بالشوق السذي يحدث فينا الى الغضب ومحبة الاثرة والتسلط فنقومه • ثم بأخر مراتبه وهو الشوق الذي يحصل فينا الى المعارف والعلوم فنقومه ، وهذه المرتبة الاخيرة هي المتخلصة للانسان ، فهي مرمى طرفه وراحة كفه ، وهي التي يسعد بها في السعداء ويشقى بها في الاشقياء ، فاذا قومنا فانما يقوم اسبابها وينسق عللها •

وليس معنى ذلك ان يقومها كما قومها في المرتبتين الاوليين ، فان الانسان اذا اشتاقت نفسه الى العلوم والمعارف قبل ان يقطع شوط الطفولة وما يقرب من حد المراهقة واليفوعة ، كان ذلك غير قانون الاخلاقيين • فكان ضروريا ان يلحق في تلك المرحلة من مراحل مبادئ ذلك القانون رويدا رويدا ، حتى تستحسهم عراه وتتأخذ علله واسبابه •

وهذا الترتيب طبيعي لما يبدو في الانسان من اول نشوئه من الشعور بانه يكون جنينا ، ثم يكون طفلا ، ثم يكون رجلا كاملا • فكان بدهيا ان تحصل فينا تلك القوى مرتبة على منازل ثلاثة • ومن اجل

ذلك كان الانسان في آخر دور من ادوار وجوده حامل الرسالة ، ومؤدي
الامانة وخليفة الله في ارضه .

ومما هو غني عن البيان ان الانبياء والرسل كانوا اشرف الناس
بالقياس الى شرف ما يصدر عنهم من كرائم الخصال وبيض الفعال ، لانهم
احاطوا عقولهم ونفوسهم بتلك المثل العليا للفضائل ، فورثهم ذلك
النبوغ الاخلاقي ، استحقاقهم لان يقبضوا على ناصية هذا الوجود، وان
يشعوا فيه اضواء رسالاتهم وتعاليم وحيهم بين الناس جميعا ، فكانوا
المثل الكامل في الانسان الكامل .

شوق النفس - ويقصد به شوق النفس الى فضائلها الصادرة عنها ،
وكيف ان النفوس تجنح الى فضائلها وتحذب عليها حذب الام الرؤوم
على واحدها .

فالفضيلة التي تكون سائر الفضائل لا بد ان تكون مستندة الى
عناية الانسان بتحصيل العلوم ، ثم تحصين النفس من الطغيان الشهواني ،
الذي اذا اصاب النفس في صميمها ، قتل فيها روح الاستعداد للخير
ومحضها للشر .

فهذه الفضيلة تقوى وتتزايد بمحض عمل الانسان ذاته، وتوافره على
افضل المثل العليا يتخذها عنوانا على كل ما يصدر عنه من الافعال .

فقد يبدو للانسان لاول وهلة ان ما يقع تحت سلطان المشاعر
كالمآكل والمشارب وما اليها من صنوف المتع داخل في عداد الفضائل ،
ولكنه اذا راجع نفسه يتبين ان تلك اللذائذ لا يصح ان تعتبر
فضائل ولا تسوغ ان تكون شعارا للانسان الناطق .

فكل موجود من حيوان او جماد او نبات، وكذا بسائطها والاجرام

والعمل على انمائها واذكاء اسبابها وبواعثها ، وهو الذي سمي الكائن (هو ما هو) و (اي شيء هو) ، وبها يتميز ذلك الموجود عن كل ما عداه •

كما ان له قوى وملكات وافعالا يشارك بها ما عداه • والانسان بطبيعة تكوينه هو الذي يلتمس له الخلق المحسود بوصف كونه نفسا مفكرة ناطقة ذات سلطان على الموجودات •

وهذا مصداق قوله جل من قائل « هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا » •

من اجل ذلك ليس لنا ان ننظر نظرا تحليليا مصحوبا بالتشخيص والتدليل الى تلك القوى وتلك الملكات التي يشارك الانسان فيها سائر الموجودات ، ما دمننا بصدد الكشف عن الفضائل والخيرات التي يجب ان تكون مميزات النفس الناطقة ومقومات لها •

ولسنا الآن بصدد بيان شيء منها ، لان بحث الاخلاقيين مقصور على بيان القوى والملكات والافعال للانسان ، فمتناول بحوثهم قوى الانسان وملكاته وافعاله من حيث صدورها عنه واتصالها به ، ويسمونها العلوم الارادية ، باعتبارها حاصلة بمحض اختيار الانسان ، وارادته ، وهي التي بها تتعلق قوة الارادة والتميز •

والنظر فيها وفي مقدماتها ونتائجها وآثارها المترتبة عليها يسمى الفلسفة العلمية ، ويرتبون على تلك النظرة ضرورة انقسام الافعال الصادرة عنه الى الخيرات والشرور ، وبالتالي الى الفضائل والرذائل • ذلك لان الغرض المعين من وجود الانسان اذا اتجهت النفوس اليه مخلصا هو تركيز الفضائل في تلك النفوس ،

والعمل على انمائها واذكاء اسبابها وبواعثها ، وهو الذي سمي
الانسان به وعند تحصيله اياه خيرا ، فاذا عاقته عن تحصيل تلك الفضائل
العوائق وصرفته عنها الصوارف ، كان هو الشرير لا محالة ، لاستحالة
خلو نفس الانسان من كلا المتقابلين في آن واحد .

وبدهي ان كل موجود من الموجودات له كمال خاص وفعل خاص لا
يشاركه فيه غيره من حيث هو ذلك الشيء في شخصاته ومميزاته ، فلا
يجوز ان يكون موجودا سواء ، يصلح لذلك الفعل صلاحية الانسان
الذي اجتمعت له تلك الشخصيات وتلك المميزات . وهذا حكم مطرد
البقاء في العوالم السفلية والعلوية .

فاذا الانسان من بين سائر الموجودات له فعل خاص صادر عنه لا
يشاركه فيه غيره ، وهو ما صدر عن قوته المميزة المقرونة بالروية .

واذا يكون كل من كان تمييزه اصح ورويته اصدق واختياره امثل ،
كان اوعى لاسباب انسانية واجمع لمقوماتها . وقد يتدلى الانسان بالقياس
الى ما يصدر عنه من الافعال حتى ينحط الى مرتبة ليس دونها مرتبة .
وافضل الناس من كان اقدر على تصريف افعاله الخاصة به ، واشد
تمسكا بشرائط الفضائل وحدودها ، واكبح لجماح نفسه عن الاسترسال
في غوايتها والركون الى شهواتها .

ومما لا حرية فيه ان الانسان كلما رقي بجوهر نفسه الى الكمالات،
كان اعم انسانية واعود فائدة على المجتمع .

والانبياء والرسل عليهم ان يبينوا السنن والطرائق لكل ما يصدر
عن الانسان من خير وشر . فقالوا هذا حلال وهذا حرام وبينهما امور
مشتبهة .

وجاء العلماء على اقدمهم فاوضحوا السبيل واقاموا بين الناس

حدودا فاصلة حاسمة . فالانسان بقدر ما يعترف من تلك الفيوضات الالهية ، يكون مبلغ استحقاقه للاتصاف بوصف الانسانية ، فاذا انحط على تلك المراتب المرسومة الحدود كان خليقا ان لا يكون انسانا .

وإذا تبين ان سعادة كل موجود انما هي بالقياس الى ما يصدر عنه من العلوم الارادية والافعال الاختيارية التي تميزه عما عداه وترسم حده التام بين ثنايا الخلود التي لا يتناكر فيها الاشخاص ولا يطغى فيها بعض الاناسي على البعض الآخر ، لا مناص من اعتبار الروية اعلى سببا من الاسباب المكونة لمراتب السعادة كلها .

فان لهذه السعادة مراتب كثيرة متفاوتة ، بحسب الروية والمروى فيه وهو الانسان . من اجل ذلك قالوا افضل الروية ، ثم ينزل رتبة فرتبة ، الى ان ينتهي الى النظر في الامور الممكنة التي تقع تحت سلطان العالم الحسي . فيكون الناظر في تلك الاشياء قد مارس رويته واعمل قريحته ، فحصل على الصورة الخاصة التي بها امسى سعيدا مستأهلا للملك الابدي والنعيم السرمدى .

وقد تواضع علماء الاخلاق على ان هناك اجناسا من السعادات والشقاوات . وان الخيرات والشرور في الافعال الارادية ، هي اما باختيار الافضل والعمل به ، واما باختيار الادون والميل اليه .

على ان هذا المجتمع لا يثمر ثمرته المرجوة الا بتضافر الايدي العاملة في بنائه . فما من لينة في اساسه الا وهي محتاجة الى يد تحكمها بتدبير وتحيطها بحزم وتنميتها بروية ، فلا يتم بناؤه الا باجتماع الايدي وتضافر القوى .

من اجل ذلك اوصت الشرائع الناس ، بالتحاب والتراحم والتواصل ، لتبقى له حياته وتدوم عليه نعمة الوجود الذي يجني الناس من ورائه اطيب الثمرات وابرك الفوائد .



General Organization Of the Alexan-
dria Library (GUAL)

Bibliotheca Alexandrina

فهرس

ص ٥	محمد ابو زهرة	الاخلاق - الاخلاق
١٧	الدكتور محمد يوسف موسى	الدين والاخلاق
٢٥	الدكتور محمود فياض	للاسلام منهج اخلاقي
٣٣	عبدالحميد العبادي	كيف كان الرسول يسوس اصحابه
٤١	عبدالمنعم خلاف	الاسلام والمعتك الابدي بين الخير والشر
٤٩	محمد احمد الفمراوي	حول عظمة الرسول
٥٩	الدكتور عيدالوهاب عزام	من اخلاق القرآن
٦٧	يوسف الدجوي	من اخلاق الاسلام
٧٥	ابو بكر ذكري	مكارم الاخلاق بين الادب والفلسفة
٩٥	عباس طه	فلسفة الاخلاق

100

100

100



محمد أبوزهرة
محمد يوسف موسى
محمد فتيّاض
عبد الحميد العبادي
عبد المنعم خلاف
محمد أحمد الغمراوي
د. عبد الوهاب عزام
يوسف الدجوي
أبو بكر زكري
عبّاس طه

التوزيع :

مكتبة الشواف
الرياض العليا - شارع الثلاثين
هاتف : ٤٦٢٢٦٦٧ / ٤٦٢٢٦٦٣